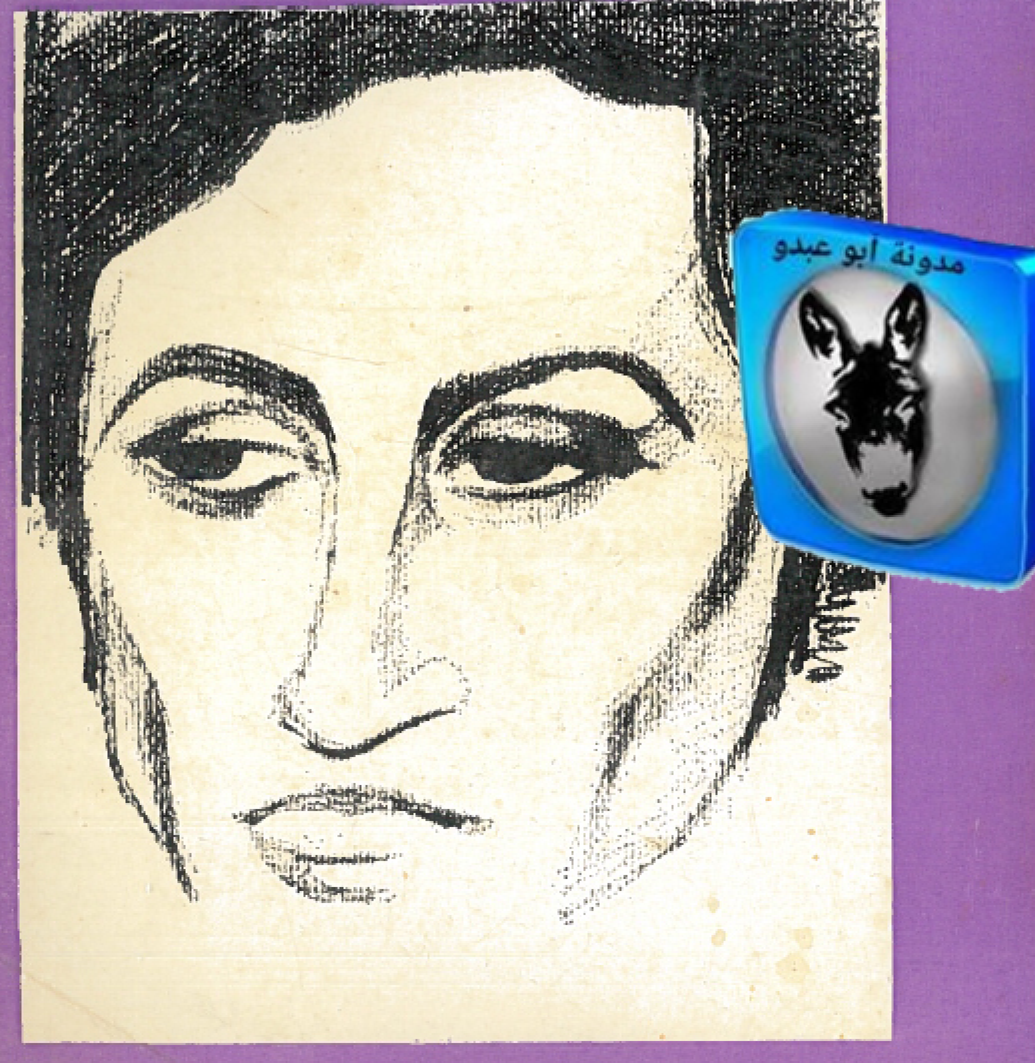
# سميره عزام



# وقصص اخرى




دار العودة . بيروت

الاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين

5478

وقصص أخرى

سميرة عزام

# وقصص أخرى

اتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين - فرع لبنان

دار العودة - بيروت

يطلب من دار العودة ـ بيروت
كورنيش المزرعة ـ بناية ريفييرا سنتر
تلفون : ٣١٠٨٤٠ ـ ٣١٨١٦٥ ـ ٨١٥٣٣٥
تلكس AWDA 23682 LE

# هواجس

كانت تتوسل وهي تنفض عنها الغطاء ان تطرد هذا الألم الذي يقبض على نفسها باصابع سوداء ويأكل طمأنينة قلبها الصغير . ويثبتُ أمام عينيها تلك الصورة الفظيعة التي تصدت لها ككابوس شرس .

ولم تغنها انتفاضتُها شيئاً . فالوجه ما زال معلقاً أمامها ، أمامَها وحدَها ، فرفيقاتها مستغرقاتٌ في نوم يؤكدُه شخيرٌ يفسدُ عليها ان تتألم في هدوء ، كأن الكابوسَ تآمر عليها من دونهن . وجعلَ من ليلتها فريسة له . . .

وأحست بأنها تكرهُهن ، تكرهُ وجوهَهن التي تحد ملامحها خطوطٌ يابسة يحار بينها الجذل والالم .

ولم تحتمل الظلمة التي تضيع معها ابعاد القاعة التي تتسع لأكثر من عشرين سريراً توزعت في نظام لا تفسده همهمةٌ واحدةٌ متى جاءت المراقبة تطفيء النورَ ، وتأمر اليتيمات بأن ينمن حالاً !

وظلت جالسة في سريرها تحاول ان تتحدى الصورة ولكن تلك لم تمح ، لم تغب لحظة واحدة ، قد انحطت عينها على الوجه الشمعي ذي الفم المحشو قطناً والعينين الزجاجيتين نصف المفتوحتين .

لم تعرف إلا اليوم ان الموت يمكن أن يكون قبيحاً منفراً رهيباً ، لا ، ما هكذا كان وجه أمها ، كان مؤنساً حتى يكاد يبتسم ، تكاد تنفرج شفتاه لتشرب دموعها .
ما كان أحلى أمها ، حتى ميتة !

في الصباح كانت ماتزال مشغولة بالمعاونة في غسل أطباق طعام الافطار من بقايا دبس العنب . حين جاءت احدى الرفيقات تقول في لهجة لا تلوّنها عاطفةٌ ما ، بأن الميتم مدعو لجنازة ، ولم تفهم ماذا تقصد الفتاة حتى ما قبل الغداء ، حين وقفت البنات حول الموائد الخشبية الطويلة . يقلن صلاةً يفسدها الجوع لم تفهم منها شيئاً ، رغم انها تقال مراتٍ عديدة في اليوم ، حين جاءت المعلمة ونبّهت بضرورة اسراعهن في الطعام حتى يدركن موعد الجنازة .

هنا فقط جرؤت ان تسأل جارة اجابتها وهي تدفع بملعقة الحساء إلى فمها الكبير بأن غنياً مات . وقد دعا أهله بنات الميتم ليشيعنَه .

وسكتت رفيقتها ، وكفت هي عن سؤالها إذْ رأتها مشغولة

بتمزيق استدارة الرغيف الأسمر .

وبعد الغداء رأتهن يحملن إلى المطبخ اطباقهن الفارغة التي مسحنها حتى بدت كالمغسولة ، ففعلت مثلهن ثم تبعتهن إلى الغرفة ولبست لأول مرة المريول الأزرق وكان طويلاً ، ولكن المعلمة قالت بأنه سيكون مناسباً إذا ما استطال جسمها بعد عام او عامين ، ثم علقت به شارة الميتم وحشرت عنقها في ياقة منشاة ، ولبست الحذاء السميك النعل ووقفت في طرف الغرفة تنتظر ما وراء ذلك حتى جاءت المعلمة وأمرتهن بالاصطفاف في الفناء وهناك بقين واقفات ثلث ساعة ثم تحركن . . .

في الطريق لم تحاول ان ترفع رأسها ، فهكذا اوصت المعلمة ولكنها سمعت الناس يتساءلون وقد شاهدوا الموكب الأزرق الواجم من يكون الميت ، ففهمت بأن الفتيات لا يتخطين عتبة الباب الكبير إلا إذا كان هناك موتى .

ومرة أخرى انتصبت في فراشها . ووضعت كفيها على أذنيها فلا تسمع ذلك الصراخ الرفيع الذي قابل به أهل الميت دخول الفتيات . . . والذي عصر قلبها واغرق وجهها بالدموع . وتمردت لا تريد الدخول . . . كانت لا تعرف بعد ان تقول صلاة ما . . .

ولكن المعلمة لكزتها وأمرتها بطرف اصبعها ان تقف كرفيقاتها حول الميت . . . فلهذا جئن . . . وكان مكانُها عند الرأس . . صورة للموت قبيحة . لا تغير الزهورُ المنثورةُ الكثيرةُ شيئاً من

قسوته . حين ماتت أمها لم تكن هناك اكثر من وردةٍ واحدةٍ حمراء قطفتها من الاصيص الوحيد الذي على شرفة بيتهم وأراحتها على صدر أمها . . كان ما يزال حاراً يخفق ، ولذا رفضت ان تصدق ان أمها يمكن ان تموت ، صحيح ان أباها قد مات ، ولكنها لا تعرفه . كان معقولاً عندها أن يموت الآباء . . أما ان تموت أمُها . .

ولكنها اليوم تعرفت على الموت ، ملأت رائحته خياشيمها . . بخورٌ وزهور ورائحة اجساد اجهدتها استثارة اللواعج . . وشمعتان يحتضر لهبهما ، واحدة عند الرأس والأخرى عند القدمين . . وتابوتٌ بارد مفتوح في زاوية الغرفة . . ووجه شمعي أصفر له عينان من زجاج وفمٌ محشو قطناً .

وسحبت الوسادة من تحت رأسها ، وضغطت بها على وجهها لتطرد الصورة لحظات ، فقد كان فظيعاً ان تقضي ليلتها تقابل ذاك الوجه الذي زاحم وجه أمها . . . ليتها ترى امها ، فهذه لا تظهر لها الا ضاحكة حانية . مرةً قبلتها واعطتها شيئاً ما نسيت ما هو حين كان الصباح ، ومرة جاءت إلى جانبها ، وجلست تحدثها حتى انها قامت تفتشِ عليها ، فقد بدا لها ان أمها قد عادت الى الحياة فعلاً ، ولم تر في الأمر معجزة ، فطالما سمعت حكاياتً عن موتى يدفنون أحياء ، ولما افضت إلى جدتها بهواجسها ، صلبّت هذه وقالت :

ـ إن أمكِ يا بنتي ليست مسيحاً .

إذا زارتكِ في ليلة قادمة فاقرئي لروحها صلاة .

إذن فموت أمها حقيقةٌ لا تغير منها زيارات الأطياف . وحتى هذه انقطعت مذ جاءت الميتم ، فروح أمها لا تحوم في مكان غريب والا لزارتها الليلة وخلصتها من هذه الصورة التي تطبق على نفسها فتنتِّف طمأنينة قلبها الطفل .

وظل رأسها تحت المخدة لا تدري إلى متى ، فهي قد نامت أخيراً لتفتح عينيها على وجه جارتها الكبيرة الفم تقول لها في غير ابتسام : « قومي فنحن ننهض في السادسة ، ان الفتيات كدن ينتهين من ترتيب الاسرة . » فقامت تنفض الملاءات وتفرشها من جديد ثم تمضي إلى حيث بللت وجهها بالماء قبل ان تمشي في الطابور الى قاعة الاكل ، فتجلس ساهمة لا تمد يدها إلى الدبس والزيتون ، ثم يخطر لها ان تسأل : « هل يذهب الميتم إلى الجنازات دائماً ؟ فتسمع صوت جارتها يخرج من خلال لقمة كبيرة : « مرتين في الاسبوع أو ثلاثاً . . او حتى أكثر . نحن نروح كلما دعينا ، فالادارة تقبض نقوداً لهذا ، والا ، فكيف يصرفون علينا ؟؟ كلي كلي ، ألا تحبين الدبس ؟ إذا كنت لا تشتهين فهاتي نصيبك ، هاتي !!

# ليلة الضياع

ـ ماما كيف نضيع سامبو ؟
ـ نضعه في كيس كبير .
ـ أي كيس ؟
ـ واحد من أكياس السكر الفارغة . . كبير يسع سامبو . . ويسع معه . . .
ـ ماذا يسع . . . ؟
ـ كل طعامك . . لا شيء . .
ـ وبعد . . ؟
ـ وبعد يحمله البقال إلى مكان بعيد .
ـ ماشيا ؟
ـ ماشياً أو راكباً الترام .
ـ أمي ألا يعرف سامبو أن يعود ؟
ـ هذا العجوز الأجرب . . ؟ لا لو رجع فليس أمامه إلا أن يموت غرقاً في البحر . .

ـ وتأكله سمكة كبيرة ، أليس كذلك ؟

ـ لتأكله العفاريت . اما أنا أو هذا العجوز الأعمى في هذا البيت . . .

حوار سمعته أم أسعد أكثر من مرة . . . حكاية المائدة من الأم للصغير كلما جلس يأكل . . تستثير بها شهيته للطعام . . وحوار الأم والصغير ليس جديداً . . ولكنها تحس الساعة بأنه لم يكن مزاحاً . . فقد عادت لتوها من زيارة الجارة فلما بلغت البيت تلقتها على الدرج عينان مدورتان سوداوان تطلان من وجه سمين لطيف .

ـ احزري ان كنت شاطرة أين سامبو ؟ .

وكان حفيدها موشكاً ان يستبق جوابها فلا يخليها تحزر لولا ان أطلت أمه من أعلى الدرج وصرخت به صرخة كاد يتعثر بسببها لولا يدا جدته اللتان سارعتا تتلقفانه . ورفعت رجلا متثاقلة النقلة ترقى الدرج ويدها في يد الصغير إلى غرفتها لتلقي بشالها الاسود إلى السرير وتسرع للشرفة الخلفية حيث يجلس سامبو فلا تجد إلاّ طبقاً من التوتياء متآكل الدهان وعظمة باقية لم تقو عليها أسنان الكلب .

أما هو فلم يكن هناك . .

وهنا تذكرت الحكاية . .

وجمدت تتأمل العظمة . كانت بيضاء نظيفة لم يدع سامبو شيئاً عالقاً بها كأنما كان يحس انها آخر أكلاته في هذا البيت ، وان مصير شيخوخته بعد هذه العظمة معلق بشفتين حقودتين . .

وأحسّت بقلبها مسرحاً لمأساة جديدة من هذه المآسي الصغيرة التي قد لا تستحق اسمها لولا ان مصدرها كنّة ،

كنّة وكلب عجوز ، وكانت العداوة في نظر الكنّة متكافئة إلى درجة ان تجعل مصير الكلب العجوز طعاماً لسمكة او ضياعاً في حاكورة مهجورة ومن قال ان الدور بعد الكلب لن يكون لها ؟

سفيهة تريد كيساً يسعه ويسع . . وتسكت كأنها وهي تتلذذ في وصف الطريقة إنما تتخيل حماتها تتكوم في الكيس ويحملها صبي مأجور إلى أي مكان . .

ماذا يقول سامي لو عرف ؟

أجل سامي . . فالآخر الكبير لا يجد في مصير الكلب أكثر من نهاية طبيعية يستحقها كلب شيخ . . ولعله سيبتسم ببلادة لو سمع زوجته تقول ( كيس يسعه ويسع . . ) أجل ماذا يقول سامي ؟

وتمثلت صورته رأساً . شاب قوي يصعد سلم الباخرة بحماس من يرتمي في حضن المجهول ، ولما بلغ رأس السلم رفع خصلة هي مدلاة على جبينه ولوح لامه وصاح بها بصوته القوي . أمي لا تبكي . وصيتي لديكِ سامبو . أريده مدللاً كما لو كنت موجوداً ، لا تهملوا حمّامه فيأكله القراد .

وارتمت ضحكته عليها من علٍ حتى مسحها صفير الباخرة الطويل . ولما رجعوا من الميناء تلقاها سامبو عند أعلى السلم فتمسح

بها وحك حذاءها بمنخره كأنما أحسَّ ان العطف بعد سامي لن يأتي إلا منها ، وكانت هي قبلا قليلة الاحتفال به وقد ضربته مرة ومرتين حين مزق باسنانه طرف مفرش السرير ، وكان ما يزال صغيراً إذ ذاك . وكثيراً ما ناقشت سامي في نفعه ، وكانت أول من وقف في وجهه حين عرض عليها مازحاً ان يحضر كلبة انثى للبيت لتتشكل منها وسامبو عائلة من الجراء السود . . ولكنها الآن بعد سفر سامي مستعدة ان تنسى ، فتحب سامبو كما لم تحبه قبلا . وكانت مخلصة النية فافطار سامبو في الصباح صار خبزاً أكثر طراوة وصار حليباً لم يعتد ان يراه طافحاً بالماعون هكذا . ولما حان وقت حمامه لم تبخل عليه بالصابون ونظفته وسرحت شعره الاسود الطويل بمشط خشبي وقبلته وهي التي طالما حذرت سامي من عبث تقبيل الكلاب ، فنفسها مسموم ينفث جراثيم لا تعرف لها اسماً .

ولما وصلت من سامي أول رسالة حملت المظروف ذا الاطراف الزرقاء الحمراء وقالت له : « سامي يسلم عليك لقد دخل ( الطبية ) وقد لا تعرفه حين يرجع الينا لابساً نظارة على عينيه . كل الاطباء يلبسون النظارات . حضر نفسك لتنتقل الى عيادته فتكون كلباً وجيهاً . كلب الدكتور : « الدكتور سامي . » واستحت ان تقول بصوت مسموع « وسأكون أنا أم الدكتور . » وانتشت الى درجة ان قصت له قطعة من قالب الكعك الذي صنعته كنّتها ، حملتها اليه خلسة بعد ان قضمت أطرافها المزينة بالزبيب ومبروش جوز الهند

وصارا صديقين .

إن صداقة كلب تعوض كثيراً فالانسان مع كنّته مضطر إلى ان يشكو ، فاذا كان الابن في صف الزوجة وكانت الخادم لا تحفل بها فمن لها غير سامبو ؟

كان الوحيد الذي يمكن ان تفتح له قلبها وتصب شكاياتها في أذنيه الطويلتين .

ـ سامبو : أرأيت أبله من كنّتي ؟ تسلق البطاطس قبل ان تقليها ، وتغار مني ولا تستحي ان تقول لي « الغندرة ليست للعجائز . . » وترفض ان أجالس صديقاتها . وتأنف حتى ان تجلس معي إلى مائدة واحدة . كأن حياتي في بيت ابني صدقة منها . . مجنونة من تزوج ابنا ، لو تزوجت يا سامبو فسأكرهك ، سأكرهك .

وفي ليال كثيرة حين تغلق الزوجة عليها وعلى زوجها الباب وتبقى العجوز وحيدة في القاعة تروح ترفو جوارب ابنها وتحادث سامبو بأخبار سامي وكيف أعفته الجامعة من الاقساط لأنه مجتهد . اشطر الطلبة على الاطلاق . تقول هذا وتقوم فتخرج كوة رسائل تستعيد سطورها بجهد ، ويعرف سامبو ان هذه من سيده الغائب فيروح يحرك ذيله بنشوة قوية ، ولا يكتئب إلا حين يرى العجوز تمسح دمعة تغبش نظارتيها .

وكان هذا التعاطف بين عجوزين اكثر ما يؤذي الكنّة فقد

كرهت ان ترى الحماة مطمئنة الى هذا الحيوان فجعلت من هذا مجال تندر يسمح لها ان تقول بمسمع من الحماة : « ان الحيوانات تخرف أيضاً . . » .

فيضحك زوجها برقاعة كأن المعنية جارة لا أم .

ولم يظل الامر محصوراً في تندرها فقد كانت دائماً مستعدة ان تحول عواطفها الى احساسات معادية تعبر عنها حركات رجليها وهي ترفس الكلب فلا تبالي بعوائه الحزين إذا اقترب من مائدة الطعام او لحس ارجل الصغير بلسانه ، او عوى في وجه صديقة لها .

وكانت تردد دائما انها ليست مستعدة ان تتحمل في البيت خرِفين . . وكانت جادة . . وهو ذا سامبو قد راح . مسكين ! هذه نهاية تتوج شيخوخته الطيبة وتكافىء شهوراً وسنيناً من الاخلاص ؟

كيس يسعه ويسع . .

ترى يأتي دورها على يد هذه الشرسة ؟

وجمدت العجوز في مكانها على الشرفة فهي في حياتها لم تحس وحشة تتمدد في قلبها كما احست الساعة .

وبكت حتى شبعت دموعاً .

وانتفضت حين اتى الليل . .

كان لا بد ان تفعل شيئاً من أجل سامبو . . من أجل شيخوختهما معاً .

ونزلت الدرج تتحامل على قدمين لا تلبيانها بمرونة . لم تجد صبي البقال فتسأله . ولم تخرج بشيء حين حملت سؤالها الغريب : « من رأى سامبو محمولاً في كيس ؟ »

كانوا يسمعون ثم يهزون اكتافهم . انهم لا يدركون ماذا يعني لها ان يموت سامبو وتموت هي من بعده على يد جلاده ، مسكين ! تسع سنوات مخلصة لا تشفع له ان يموت في البيت . .

وأخذت دربها في اتجاه الغرب ، صوب البحر . وانحدرت في الطريق الذي يؤدي الى المنارة ، ثم انعطفت يساراً تدفعها الريح دون جهد . كانت ليلة سوداء ليس لها قمر . ومصابيح الشارع عمياء لا تضيء ، فلا يسمع فيها إلا صوت الموج يضرب بصخب أحمق أطراف الصخور المنتصبة على محاذات الشاطىء العتيق .

وحاولت عيناها ان تشقا الظلمة لتبصرا سامبو في كيسه ، او على قوائمه ، يطالعها من بين الصخور ، أو تحمله موجة رقيقة تتأبى على الجثث .

ولكنها لم تر إلا الظلمة وخيالات اضواء بعيدة في الماء ، وراحت تمشي ، وقطعت الكورنيش الطويل ، وسلمها هذا الى الضواحي ، لا تتوقف إلا إذا سمعت عواء .

ولم تنتبه الى انها شطحت بعيداً إلا حين ارتمت على حجر تستريح ، وتسلم لليل عتابها المجروح ، ولكن الليل لم يجب . ظل صامتاً لا يمزق صمته إلا عواء بعيد لكلاب سارحة ، ليس بينها سامبو على كل حال .

# في الطريق إلى برك سليمان

كان يدري انها معركة غير متكافئة ، فرصاصاته رغم حقدها لا تفعل أكثر من انها تستثير زخة دمار جديدة . وكان يدري ان اطلاقها لون من العبث ، فرشّاشه ليس أكثر من لعبة أطفال أمام القذائف التي تتوالى ، ولكنه كان يحاول ان يغطي انسحاب الاهالي الذين بدأوا يغادرون قريتهم منذ العصر ، بعد ان علموا ان بقاءهم مع نفاذ الذخيرة ليس إلا لعبة انتحارية . وقد تعاهد مع بعض اخوانه من الحرس الوطني عصراً على ان يغطوا هذا الانسحاب بعد ان راجعوا موقفهم ، وأدركوا ان ذخيرتهم لا تساعدهم على الصمود سوى ساعات . فقد كانت قريتهم على كتف تلة ، يفصل بينها وبين مراكز اليهود على الجبل غرباً ، واد يخترقه خط حديدي ، شاقاً اراضي القرية ، فاصلاً مدرستها وبعض بيوتها عن تجمعها الكثيف على كتف التل . وكان يقصد برصاصاته ورصاصات رفاقه على الاسطحة الاخرى ان يوهم اليهود ان مركزهم الدفاعي معزز ببعض الذخيرة . لعبة قصيرة ستنتهي بعد قليل حين يطلق رصاصاته

الاخيرة .

كانت ليلة قمراء سخية الضوء . تسمح لأزهار شجر اللـوز والمشـمش في حديقتـه ـ وفيما وراء حديقتـه من بساتين ـ ان تبــدو كنجيمات صغيرة بيضاء تجعل لياليه شعراً كلها . فكأن هذه النجيمات عيون بريئة مفتّحة على مأساة تكاد لا تدرك منها شيئاً .

وأمامه وراء الخط الحديدي بدت له المدرسة التي كان معلمها خواء يهزأ بكل الحياة التي حاول ان يبثها في نفوس رفاقه الصغار . بكل الحكايات التي كان يحكيها لهم قبل ان يبدأوا تمرينات الصباح . كان يقف في وسطهم ويقول انظروا . . « هذا هو الجبل . وسيأتي يوم نجعل منه جبلاً عربياً » وتلتفت العيون غرباً وترتفع لتتسلق تلاله وذراه . . المتوشحة بألقٍ شمسّي .

كانت زوجته تقف وراءه تقوي فيه دواعي الصمود . وتحاول ان تغالب هلعها أمام التماعات القذائف . .

وأطلـق رصاصاتـه الاخـيرة . . ورد عليه مدفـع مهـذار . . أحس معه بحجارة بيته تتقلقل . وألقى بالرشاش . . فهو بعـد ان فرغ رصاصه ليس أكثر من لعبة يلهو بها طفل .

كان يرفض ان يصدق ان دوره قد انتهى . . فمع الظهر جاءه من يؤكد له ان صناديق ذخيرة في الطريق الى « بتّير » . وقـد فات الظهر والاصيل والمساء دون ان يلوح شيء . .

لو جاءت الذخيرة لانتصب مارد على كل سطح من رفاقه شباب الحرس ؟ ان جهود أحمد في تطوافه على القرى القريبة لم تنجح في الحصول على أكثر من بنادق ليس لها من الذخيرة غير الرصاص الذي فيها ؟ بندقية أمام مدفع ؟ قزم أمام مارد .

وراح يدور على السطح وأظافره تكاد تنغرز في كفيه ، وقد شعر ان ليس أعجز من الرجولة امام النار. وتطلع إلى زوجته . كانت تبكي . هذه أول مرة تخاف فيها ، فكأن الرشاش الفارغ حسسها بأن بطولة حسن ليست إلا تهريجاً صبيانياً. وان طوابير الشباب التي تعب على تدريبها ليست أكثر من دمى في يد طفل عابث . . لم يكن يملك ان يقدم لزوجته شيئاً ؟ لوناً من ضمانة تثبت في نفسها شيئاً من الطمأنينة . . .

وأحس بأن رشاشه الفارغ ، خشبته العاجزة ، هي المسؤولة عن رجولته المهينة وانه بدون رصاصها سيموت في بيته ميتة فأر .

وشق عليه ان تبكي سعاد . . ولما نظر اليها حانقاً لم تقل له أكثر من كلمتين « وطفلنا يا حسن ؟ » عمر ؟ . . لعيني عمر كان يحارب ، لعيني جيل من رفاق عمر ، صغار بلاده ، كان معلماً في النهار وحامل بندقية في الليل . .

أجل وطفله . . هذا سؤال جوابه عند المتاريس التي تريد المحاربين ، والمحاربين الذين يريدون الذخيرة . وطافت في مخيلته صورة شرذمة تحتفل بنصر حقير . .

وتطلع إلى زوجته . اما ان يموت معها ومع عمر ، او ينطلقوا إلى « برك سليمان » مع النازحين ، فيترك الطفل وامه هناك ويعود ليفعل شيئاً . .

« تعالي » . . وشدها من يدها وهبطا السلم معاً . . ومضى إلى سرير عمر فحمله . . كان نائماً . . ولعله كان يحلم بيوم جديد هنيء تشرق شمسه على رجاء ، وتنام على طمأنينة بين ذراعي امه .

ورأى زوجته تفتح الخزانة . . وتحشو بعض ملابس في ( بقجة ) ثم تتجه الى الطاولة الصغيرة وتحمل صورتهما في حفلة العرس . .

وانطلقا ، زوجته بالبقجة ، وهو بعمر ، يشده برفق الى صدره ويحاول ان يدفئه بكل عاطفته ، فلايخاف الصغير ولا يفتح عينيه على ليلة رعب . كان أزير الرصاص قد سكت وكذلك لعلعة المدافع . لعل اليهود قد أدركوا أخيراً عبث الطلقات تضيع هباء مع القرية العزلاء . فجلسوا يستريحون ، او يرسمون الخطة لزحف يسهّله لهم انهم ينحدرون من جبل ، وان « بتّير » ترتمي ضعيفة على كتف الوادي .

والتفت حسن الى بيته ، كان ما يزال مشدوداً بكرامة . جدرانه البيضاء تشرب فضة القمر ، ويغسله عطر زهر اللوز بسخاء ربيعي . حجارة بيته هذا من مقالع الجبل ، وحديقته ثمار فأس يخرج بضربته بألف وعد . .

شجرة اللوز غرسها يوم ولد عمر . . وكبرت الغرسة واخضرت . وكان يحمل ابنهِ ويوقفه بقربها ويقول دعنا نقس . . أيكما صار أطول ، أنت ام اللوزة ؟ . .

ورأى زوجته تلتفت مثله ، ثم التقت أعينهما ، وفي لحظة واحدة استعرضا تاريخاً من عواطف . . بدأت منذ عرفها طالبة في القدس ، وأحبها ثم حملها الى بيته هذا ، ومعها جنباً الى جنب ، غرسا الحديقة ، ملآها زهوراً وشجراً ، وعمّرا بيتاً بالحب والغنى ، أجل هوذا بيتهما ، عشهما الابيض ، كل حجر فيه يحكي حكاية من لون . .

وشهقت سعاد . .

أما هو فحاول ان يتماسك وهو يستمد شجاعة من حرارة الجسم الطرىء الذي يحمله .

وغذّا السير . .

كانت الطريق خالية ، البيوت ساكنة كأنها أنصاب في مقبرة أثرية ليس فيها من مظاهر الحياة غير الشجر . .

وفجأة لعلع الرصاص من جديد . وصاح بزوجته أن تنبطح وانحنى هو أيضاً وظلا لحظات حتى سكت الرصاص ، فنهضا والتفت حسن يحاول ان يتبين الناحية التي تنصبّ منها الطلقات . . وإذ بقذيفة تمزق سكون الليل ، وصاح بزوجته اركضي . .

وركضا معاً . . ظلّا يركضان أكثر من ثلث ساعة حتى أحس

بأن زوجته قد انهكت فاتأد . . ورفع يده اليسرى التي أحس بها تتصلب ليريحها ، فاذا بشيء حار يغسلها .

هل اصيبت ؟ . .

وقلبها فلم يبد فيها أثر رصاصة كما لم يحس ألماً . .

وارتعد . . أهو عمر ؟ . .

وخنق انفعاله . . أقل حركة منه تشل زوجته . . وخشي ان يقف ليتبين مصدر الدم فيثير شكوكها . .

وشد أكثر على جسم الصغير وقد راح يمشي بسرعة عجزت زوجته عن مجاراتها .

واتسعت المسافة بينها وبينه فسمعها تنادي . .

كان صوتها حزيناً عريضاً خائفاً . .

ورد عليها بصوت مخنوق دون أن يلتفت « انني هنا » .

وانتظر حتى اقتربت ، ثم عاد وأعطاها ظهره وسار ، كان يريد ان ينفلت منها بأي شكل ، وصوتها يلاحقه من خلف : « لقد تعبتَ من حمل الصغير فاعطنيه » . .

وكان يبكي فلم يجب ، ولم يلتفت لصوتها الذي يصفع ظهره : « لقد برد الهواء فخذ هذه البطانية ولف بها عمر » . .

وأخذ البطانية دون ان يدعها ترى وجهه ، ولف صغيره بها وركض . .

لقد ابتعد عن صوتها وهي تناديه ، لو عرفت لماتت في مكانها ، إنها ستتلمس طريقها بنفسها مع فلول النازحين .

وانعطف يميناً ، ثم توغل في طريق جانبي ، وتوقف ، ورفع البطانية وقلب الجسد الصغير الذي كان يتفجر دماً .

واختنق بشحنة تفاعل فيها الألم والحقد والمرارة .

وأراح الطفل على التراب . . كان القمر قد انحدر واحمرت ألوانه . فكأنه شمس تشرق من الغرب ، وتوشحت السماء بأضواء فجرية مسحورة وبدت له أسطحة الدور في « برك سليمان » مسطحة مربعة .

وأكب على الوجه الناعم يقبله ، يحاكيه ، يناديهِ حتى انحبس صوته ونشفت دموعه بالحرقة التي اشتعلت في عينيه .

وعاد يهزِ الصغير ليعيد اليه اعجوبة الحياة ، فما اختلج الجفن المنطبق نصف اطباقة على العين التي كانت حياةً ، غرس لأجلها اللوزة ، وحمل البندقية .

وتطلع حواليه ثم انعطف صوب بساتين اللوز ، وظل طويلاً يجيل عينيه ليختار شجرة سخية قصدها ، وأراح الطفل تحتها ، ثم عالج احد الغصون فكسره ، وراح ينبش به الارض بحركة دائرية ، ما لبث ان اتسعت للجدث الصغير . ولما غطاه بالتراب حفنة أثر حفنة ، يحملها بيديه ، وقف وهز الشجرة ففرشت له القبر بنجيماتها البيضاء .

ولم يقرأ صلاة ما ، فقد أخرسه الحقد . .

وانتزع نفسه ومشى يشق طريقه بين فلول النازحين ، ويحاول ان يتماسك فلا يتعثر بحجارة الطريق ، وقد طوى على ساعده بطانية صغيرة لزجة ، يعلم انها لم تكن حمراء ، قبل ساعتين .

# سعد والديك

كانت مفاجأة له ان يعود ظهراً من المدرسة فيجد سواداً متكوماً قريباً من باب غرفة الجلوس ، يتحرك حين يدخل ، ثم تبـرز منـه ذراعان سمراوان تقبضان على يده الصغيرة ، ويسمع صوتاً مألوفـاً يقول :

ـ عيني سعودي . . ما تسلم على جليلة ؟

هنا فقط تبين ان في الكتلة السوداء وجهاً لم ينكره رغم هذه الاصباغ المضحكة التي فُرش بها .

أجل كانت جليلة . ولقد فرح حين رآها فقد ظن بأنها ـ وقد ركبت القطار ـ لن تعود قط .

ولكن أمه قد قطعت عليه سبيل التكهن حين قالت : « جليلة جت ويا رجلها للزيارة » .

وقد اضحكه ان يكون لجليلة « رجل » فابتسم ابتسامة خجولة حاول ان يمنعها وهو يحس بها تريد ان تفرش نفسها على وجهـه ،

فقبل شهرين فقط كانت جليلة هي جليلة ، سوداء بلا تعقيد ، اظافرها صفراء ، وشعرها اكرت . رفيقته ما دام في البيت تلاعبه ـ التوكة ـ وترسم له المربعات على أرضية الكراج الكبير بالطباشير البيضاء ، وتنتقي له حجراً تظل تحكه بالأرض حتى تصقل أطرافه فيصبح سهل الانزلاق من مربع لآخر .

هذه هي جليلة قبل ان يأتي ابوها من مكان بعيد ، فيتربع قرب باب المطبخ ، ويمسح صحناً كبيراً من الطعام ، ثم يكرع نصف تنكة الماء قبل ان يسر في اذن ابنته ان تجمع اغراضها . . فتغالب هذه دمعتين لا يعترف ابوها بهما ، ولكنها تقوم تلمها ثم تأتي فتمسح على رأسه قائلة :

ـ « عيني سعودي بويا يريدني امشي وياه لهلي » . وهكذا انصرفت عنه جليلة بعد ان قبلت يد أمه ، وقبلت خديه ، يتقدمها ابوها وهي وراءه تتأبط « البقجة » وقد راحت تتلفت بين الفترة والاخرى حتى اختفت في نهاية الشارع .

وفي المساء حدثته أمه كيف ان جليلة ستتزوج ابن عمها الذي لا تعرف الام اسمه ، وانه يتعين عليه بعد الآن ان يتعلم كيف يأكل وكيف يلعب التوكة بلا رفيق .

وكان قاسياً عليه ان تمضي جليلة ، فقد كانت رفيقة طيبة ، تحتمل منه كل شيء حتى اللكمات ، ولقد احس انه يحبها الساعة

مثلما لم يحبها في أي وقت مضى ، وقد ود لو انه تذكر ان يعطيها هدية قبل ان تمشي ، « كفيّة » يشتريها لها من مخزن التجهيزات ؛ او لفة قمر الدين ، تأخذها لاهلها ، فقد كانت تحب قمر الدين وتغريه كلما أخذ من أمه نقوداً ان يشتري بها قطعة منه ، ما تلبث ان تأخذها وتمصها في فمها الكبير . . ولكنها سافرت ولن تعود .

والآن هذه هي جليلة تتكوم في عباءة وتقول بصوتها الرفيع الممطوط لأمه :

ـ عمّة . . سعودي ما عرفني جيف لابسه عباية !

ولكنه عرفها فهو لا يخطئها قط .

ولم ينتبه سعودي حتى هذه اللحظة ان جليلة لم تكن وحدها ، فالى جانبها تكوم ديك مربوط الرجل بحبل رفيع ، أمسكت جليلة بطرفه وشدته على ابهامها ، وقد أغلق الديك عينيه فبدا كالنائم ، ولما قامت حين جاء ابراهيم يخبرها بأن زوجها قد جاء يطلبها ، ويبتسم ابتسامة خبيثة ، وهو يقول ذلك ، قامت هذه ، وقبلت يد أمه في استحياء ، ثم نجحت ان تفوز بخده وهي تقول :

ـ عمّه هذا ديج زغيرون جبته وياي لسعودي .

واسلمته طرف الخيط ورفضت ان تأخذ الدينار الذي قدمته أمه لها الا بعد الحاح ، وقامت لتنصرف فتبعها سعودي ليرى شكل الرجل الذي أخذ منه جليلة .

ولكن هذه غذت السير ، فقد خجلت ان تتباطأ فيعرف

« الجوارين » انها ذات رجل .

ولما عاد الى الغرفة وجد الديك الذي تركه يقفز ساحباً وراءه الحبل المشدود الى رجله ، إلا أن المطاردة لم تطل ، إذ سرعان ما نادت امه ابراهيم فأمسكه بعد مداورة قصيرة ورفعه في يده وتأمله وقال :

ـ عمه اذبحه ؟

هنا فقط انتبه سعودي إلى أنه مسؤول عن الديك ، فجليلة قد حددت ان الهدية له ، وانها مضت بعد ان تركت له شيئا منها ، وان هذا الديك الاسود ذا الذيل الطويل ، والعرف الأحمر الواقف ، شيء لا شأن لابراهيم به ، فتقدم واخذه منه وحمله ومسح على ريشه الناعم ، وتأمل عينيه العسليتين الصافيتين ، وتحدى ابراهيم الواقف بانتظار اشارة من امه وقال :

ـ هذا الديج مالي . . « صوغة » من جليلة . مو تمام يوم ؟

ولكن ابراهيم الوقح لم ينصرف قبل ان يقول :

ـ عابت هيجي صوغة !

إنه لم يحب جليلة في يوم من الأيام ولن يحب الديك الذي أحضرته .

وتصور سعد ان ديك جليلة بحاجة إلى حمايته ومحبته فهو يبدو خائفاً مستغرباً وكأنما فهم ماذا تخبىء له عبارة ابراهيم « عمه

اذبحه » .

لا . . لن يذبحه ابراهيم ، ولا أحد في هذا البيت ، وحمل الديك رفيقا ورجا أمه ان تعطيه حبات الارز ينثرها له ، ثم افلته ، واكتفى بامساك طرف الخيط ، وبالفرجة عليه وهو يتقدم بحذر نحو الحبات البيض المنثورة فيلتقط واحدة فثانية ، فثالثة ، ثم يجهز عليها جميعا بسرعة .

لقد كان جائعاً ، ولا بدّ انه عطشان أيضاً ، وانه سيشكره كثيراً لو تركه يشرب من المستنقع الصغير الذي يتجمع ماؤه من حنفية في الحديقة ، ولا تمسك الماء جيداً ، فهي أبداً رخوة .

ولما شرب الديك وأحس بالارتواء ، ربطه سعودي إلى جذع شجرة النارنج في الحديقة وتركه يقفز بالقدر الذي يسمح به الحبل القصير ثم عاد يقول :

ـ ماما خطيّة نذبح الديج خل دانر بيه عدنا .

ولكن أمه لم تقل شيئا ، وتدخل ابراهيم فقال وهو يرتب الصحاف على المائدة :

ـ قابل تريد الحديقة تصير سيان ِمن وصاخته ؟

ـ هذا مو شغلك ، هذا خوش ديج ما يوسخ .

ولكن الديك خيب ظنه ، فهو لم يتورع ان يملأ ما تحت الشجرة قذارة ، وان ينبش الأرض بأظافره ، ولما عاتبه سعودي لم

يرد عليه بأكثر من ـ وقوَقة ـ لا تعني وعداً بالكف عن شيء .

ومع ذلك لم يبخل عليه بقبضة من حبوب الارز الناشف ، ولم يتردد أن يحرم نفسه من أكل « الدوندرمة » ليشتري بالفلوس العشرة قبضة من « اللبلبي » حملها للديك ظهراً فأكلها في لحظات . لقد كان ديكاً شرهاً ترك المجال لابراهيم لأن يقول :

ـ « ديج مال فكر ما شايف انعل ابوه لأبو اللي جابوه . . »

وود لو يضرب ابراهيم على فمه ، فقد كانت شهوة الذبح في عينيه ، ولكن ابراهيم وعداءه للديك لم يكن المشكلة الوحيدة ، فان شجرة النارنج كانت تجاور شباك الغرفة التي ينام فيها ابواه ، وقد نهض ابوه صباحا ليتساءل عن مصدر هذا الصياح الذي قطع عليه نومة الصبح ، فلما عرف بأمر الديك لم يبد عليه انه قد أساغ وجوده .

ولقد قلق سعودي فان أباه عصبي ، ولو سكت اليوم فلن يسكت غداً ، ولقد حاول وهو يلاعب الديك عصراً ان يفهمه بكل الطرق بان أهل المدينة يستيقظون على دقات الساعة فليس بهم حاجة إلى صياحه ، وان الأمر هنا غير ما هو عليه في القرية ، ولكنه كان ديكاً عنيدا لم يبال ان يتفنن في اطلاق صيحاته بمختلف النغمات في صباح اليوم التالي . لذا جمد في فراشه حين صاح الديك واصاخ السمع جيداً فبلغه صوت أبيه يقول لأمه في حدة :

ـ تاليها ويا هذا الديج ؟

أجل لا بد من التفكير في طريقة ، هل يربط منقاره بخيط فلا

يصيح ؟ كيف يأكل اذن ؟

هل يحمله إلى السطح ويربطه بالخشبة التي ترفع حبال الغسيل ؟

ستقتله حرارة الشمس ، وقد يغريه العذاب ان ينط إلى سطوح الجيران . ولكن فكرة نقله إلى السطح معقولة لو توفر له القفص .

ولما لم يهتد بسهولة إلى طريقة الحصول على القفص رأى ان يجعل من أي شيء قفصاً يعيش فيه ديك جليلة .

ولكن الصدفة وفرت عليه عناء التفكير الطويل . فقد مر بالسوق ورأى الطماطة عند بائع « المخضر » مكومة في قفص من سعف النخيل ، رأى أنه يصلح جداً للديك لو قلبه وفرش على ظهره شيئاً يحمي الديك من حرارة الشمس . وتقدم من البائع :

- عمي بيش تريد القفص ؟
- تقصد الطماطة ؟ بثمانين فلس ابني .
- ما اريد الطماطة اريد القفص بيش تبيعه ؟
- ابني روح . ما عندك شغل ؟
- عمي اريده ، انطيك شكد ما تريد .
- روح جيب مية وخمسين فلس .

مائة وخمسون . . هذا مصروفه في اسبوعين . . وقد يمكن له

ان يستغني عن انفاق ـ عَشْرَتِه ـ اليومية ولكن من الذي يضمن سلامة الديك من شر ابراهيم ، أو عصبية ابيه حين يصيح هذا في الصباح ؟

ورغم هذا كله فليس هناك غير شراء القفص .

وكان يجتهد ما وسعه الأمر ليوهم أمه بأن الديك لا يترك أقذاراً حواليه ، فهو ما يكاد يصل من المدرسة حتى يتسلل إلى مكان الديك ويكنس القذارة التي يفرشها تحت الشجرة ، ولكن كيف له ان يسكت صياحه ؟

كان يستيقظ قبله ، ويفتح اذنيه ، ويضع يده على قلبه ، ويرجو بكل حرارة ان لا يحس الديك بطلوع الصباح ، وان تأخذه نومة الصبح التي تأخذ أباه .

يوم ، يومان ، سبعة ، خمسة عشر !

وجمع المائة والخمسين فلساً ، وحملها لبائع المَخضر ، وعاد بالقفص يسحبه على اسفلت الشارع الذي سيّخته شمس الظهيرة ، ولم ينج من تحرشات الصبية حتى وصل البيت .

ويخدمه الحظ ويجد الباب مفتوحاً ، فيتسلل الى السطح ويترك القفص هناك ، ثم يهبط السلم بسرعة ، ويمضي إلى الحديقة فلا يجد غير حبل مشدود إلى الشجرة .

ولم يكن الديك هناك .

إنما كانت ريشات لامعة يبدو انها انتزعت اثر مطاردة . أما

الديك فقد كان طبقا على المائدة تحيط به حبات البطاطس المقلي .

ولم يحتمل أن يرى اباه يغرز فيه سكيناً فهرب إلى غرفته وقد غسلت الدموع وجهه ، ودفن رأسه تحت اللحاف . دون ان يبالي بتوسلات امه التي رجته ان يقوم ، فيأكل هذه الشرائح اللذيذة التي تحملها له .

إنه يكرهها ، يكرهها ، يكره أباه ويكره ابراهيم ، يكرههم جميعاً فهم غيلان يأكلون كل شيء . . حتى صديقه الديك ، الديك ذا الريشات السود اللامعات والعرف الأحمر الواقف . . الذي حملته جليلة من الجنوب وتركته أمانة بين يديه .



# الأعداء

لـم يشـأ ان يضيع دقيقـة واحـدة في استدعـاء المصعـد الكهربائي ، بل راح يرقى الدرج طاوياً الدرجتين والثلاث معاً حتى استقر أمام أحد الابواب ككلب لاهث ، فوقف يسترد انفاسه لحظات قبل ان يضغط على الجرس ، محدقاً بانتبـاه في هذه المرة إلى اللافتـة النحاسية . ( الشركة الشرقية . استيراد وتصدير ) المثبتة إلى الباب ، وقد لفت نظره تألق القطعة واشراقها على الباب المصنوع من خشب الجوز البني اللامع . فألقى على نفسه نظرة سريعة ، وآذاه أن يكون حذاؤه قذراً بهذا الشكل ، فانحنى يجلو غباره بمنديل ، متلفتـاً فلا تضبطه عينان اريبتان ، ثم انتصب مستجمعاً نفسه ، قارعاً الجرس بتهيب ، ففتحه له ساع يلبس بذلة كاكية بأزرار صفراء بدا له أكثر وجاهة منه ، فاستقبله بعينين متسائلتين لم يرد عليهما بأكثـر من : « قل للسكرتيرة بأنني حضرت » ، ولم يشأ ان يذكر اسمه ، فاسمه لا يقدم او يؤخر في مكان تتوافد عليه الوجوه والاسماء ، وهو ليس متيقناً قط بأن السكرتيرة قد حفظت اسماً يكاد هو نفسه لا يحفظه ، ولا

يعني له أكثر من ان نكرة ابن نكرة قد كلّت قدماه من استجداء وظيفة مذ سرح من عمله حين أعلنت شركة النقليات التي يعمل فيها عزمها على التصفية ، بعد الخلاف الذي دب بين أصحابها ، ولم يحصل على أكثر من وعد بدفع المبلغ الذي يستحقه كتعويض بموجب قانون العمل ، لم يقبضه بعد ، وليس موقناً بأنه سيقبضه . ولعل الساعي كان مصراً على معرفة اسمه حين فتح أحد الابواب وخرجت منه السكرتيرة ترتدي تنورة ضيقة بيضاء لا يعلم كيف استطاعت ان تحشر نفسها فيها ، فاستقرت عينها عليه لحظة وقالت : « انت الشخص الذي يريد الوظيفة ؟ » حسناً هل كتبت طلباً ؟ اعطنيه ثم اجلس على هذا المقعد ، حتى يفرغ المدير فيقابلك . وجلس على المقعد ، على طرف منه ، فقد كان يشغل الطرف الآخر شخص ثان ، وكان هناك ثالث استقر على كرسي قبالتهما وقد استنتج انهما طالبا وظيفة مثله ، فقد كانت لهما النظرة القلقة التي تترجم عن نفسها بالايدي الحائرة ، التي تسوي من وضع ربطة العنق تارة ، ومن ثنية السروال طوراً ، او تعبث بملء زمبلك الساعة حتى تكاد تكسره .

هذان اذن غريمان .

ونقل بصره بينهما . كان الجالس إلى الكرسي أنيقاً بالقياس اليه ، فقميصه شديد البياض ولم تكن ربطة عنقه فتلة مستهلكة كهذه التي يلبسها والتي يعقدها في المناسبات . وكان حذاؤه شديد اللمعان . اف كيف أغفل تلميع حذائه ؟ ان المديرين يؤخذون

بالمظاهر . . ويفضلون الا تنشز هيئات موظفيهم عن هذا الترف الزاحف الى الشركات الغنية . انه في شركته تلك القديمة لم يكن يهتم بحلق ذقنه لأيام ، ولم يكن يبدو على أصحابها انهم يتضايقون من هذا الشوك النابت في وجهه . . ولم يلتفت كثيراً الى الشخص الذي إلى جانبه ولكنه لاحظ ان سرواله قد عرف المكواة منذ عهد قريب . . وضايقته ابتسامة مفتعلة تلوح على وجه هذا الذي يقابله ، لعله شاء بها ان يعبر عن استخفافه بمنافستهما معاً ، وبأنه ـ في مجال استعراضهم ثلاثتهم ـ سيكون الفائز بلا شك ، ولقد حاول ان يؤكد اطمئنانه حين أشعل لفافة أخرجها بثبات من علبة « اللاكي سترايك » التي يحتفظ بها في جيب قميصه ، والتي تشف رقة القميص عن دائرتها الحمراء ، ولم يقدم سيجارة لأي منهما ، ولو عرض عليه لكان كفيلاً بأن يقبل ، حتى ولو كره وجهه المترفع . . أي داع للعجرفة وهو مثله باحث عن وظيفة قد ينالها وقد . . والاحتمال الثاني هو الاكثر رجحاناً ، ففي هذا الاسبوع نفسه قابل عشرين من مديري الشركات ، وقرع أبواب المصالح واحداً واحداً ، واشترى كل الصحف ليقرأ فيها اعلانات الوظائف الخالية ، وادعى أيضاً انه يصلح لوظيفة مدير ادارة لأحد الفنادق الوجيهة التي يصافح وجهها البحر ، ولكنه حين صعد درج الفندق وغاصت قدماه في السجاد الأحمر المفروش على السلالم ، أدرك كم يبدو ناشزاً بين هذا الترف ، فاستدار راجعاً ، كان لا بد له من الامساك بعمل ، كاتب في شركة ، محاسب في دار سينما ، او حتى شرطي للسير . لقد فك

بالأمس آخر خمس ليرات بقيت من آخر راتب تناوله فكيف يسد الأفواه الخمسة التي يعولها ، والتي تستطيع ان تطحن كيلوين من الخبز بلا كلل ، وكيف يستطيع لو صبر على الجوع ، ان يصبر على حرمانه من علبة ( البافرا ) التي يدخنها يومياً ؟ اف لماذا لا يعطيه هذا سيجارة ؟

وتطلع اليه فرد على نظرته بنفثة من سيجارته بدت له متحدية فوق ما يطيق .

بأي حق يأتي هذا وذاك لمزاحمته ؟ هل يعلمان بأنه زوج ، وعائل لام ، وأب لثلاثة ؟ هل يدري هذا الذي يتيه بسرواله الازرق ان عهد غريمه بآخر بذلة كاملة كانت يوم تزوج قبل خمس سنوات . . وانه لم يكن ينام في ليلته أكثر من ساعتين منذ ابتدأت الشركة بالتصفية ، كان راضياً بالمائتين والخمسين ليرة ، وكان يحقق معجزة شهرية إذ يتدبر الا يجوعوا خمسة ايام على الاقل من مجموع أيام الشهر الثلاثين ، حين يضطر ان يدفع ستين ( ورقة ) إيجاراً لغرفته .

إنه أولى الجميع بالوظيفة .

وهو كما يبدو المتزوج الوحيد بينهم ، إذ كانت تخلو أصابع الآخرين من هذا الخاتم الذي ألقى بوجهه بأربعة أفواه تريد . . وقام المدخن يبحث عن شيء يطفىء فيه عقب سيجارته ، وعاد يمشي بخطى يموه تثاقلها باللحن الذي أخذ يصفره ، هل يعني صفير مبالغة

بالاستخفاف ؟ لكن اشتهى ان يصفعه فقد استمتع بكرهه أكثر مما استمتع بكره هذا الآخر الأصفر الوجه ، المعروق اليدين ، الذي لا يستطيع المرء ان يقرأ ما يجول في رأسه الطويل .

وحاول ان يهدأ قليلاً . لقد ارفق طلب الوظيفة بصورة عن شهادة البكالوريا التي يحملها ، ولكن البكالوريا ليست بالضمانة الكافية . هل ينسى ما قاله مدير مكتب شركة الطيران حين ابدى له انه حامل بكالوريا . . لقد قال : « بكالوريا ! بكالوريا ! تشرفنا يا سيدي عندي في الدرج مائة طلب لمائة جامعي فلا تفرح كثيراً بهذه البكالوريا . .

يا إلهي لماذا أهانه بهذا الكلام اما كانت تكفي « لا » لاغلاق الباب في وجهه .

ولكنه كان مضطراً إلى ذكر شهادته المدرسية ، وإلى ان لديه خبرة ثلاث سنوات لا ستة في شركة النقليات ، فهو لم يقل بأنه رافقها حتى أفلست . . أو كادت . . وتشاجر أصحابها فقد يعتقد المدير انه طالع نحس ، ان الناس حساسون بالنسبة لأرزاقهم . . ولكن ما ذنبه هو ؟ لقد حسب كل حساب إلا هذه النهاية . . .

وفُتح باب المدير واطلت التنورة التي تنحشر فيها فتاة ، واستدارت اليها العيون ، وباشارة من طرف اصبعها المصبوغ قام هذا الرفيع يتبختر .

بأي حق اختارته ليقابل المدير أولاً . . . هل استهواها ؟ هل

وجدتـه أجـدر الثلاثـة ليعيش في هذا الجـو النـظيف . . ان المدير سيكتفي به اذ يقابله فيفوت عليه الفرصة . لا لن يسمح بهذا فهو ـ ولو لم يكن مترفاً ـ احق منه بأن يعمل . بأن يأكل اطفاله . بأن ينام الليل ، بالا يموت منتحراً تحت عجلات الترام . فلعل اثارة شفقته بشكل ما تشفع له أكثر مما يشفع له هذا الادب الذي استهل به طلب الوظيفـة « حضرة الاجـل الافخـم سعـادة مدير الشركة الشرقية الزاهرة » . . وقد اقترحت امه ان يضيف « طال بقـاه » . . ولكنـه أسكتها . إن سعادة الاجـل الافخـم سـيراع اذ يقـرأ في عينيه بأن أصحـاب السعـادة لن يظلـوا على جلالهـم لو جاع أطفالـه . يريد وظيفة ، يريد عملاً ، ولن يخرج إلا به . . ان حذاء المدير يوازي نصف مرتبه ، فماذا يضيره لو اشاع الطمأنينة في العيون العشرة التي تتطلع اليه بوعي وبلا وعي اذ يعود مهدوداً بعد رحلة طويلـة تأكل نهاره وجزءاً من نعلي حذائه وهو يفتش عن عمل ؟ . ونهض . . وفي هذه اللحظة فتح الباب واستدعتهما السكرتيرة كليهما . .

واصطف الثلاثة أمام المكتب الماهاجوني الفاخر الذي يرخـم فوقه رأس يدور في غير آفاقهم . . كان مكباً على أوراق بين يديه فلم يرفع رأسه . وأحس صاحبنا بالألم ينقر على ركبتيه قبل أن يرفع المدير عينيه ثم يأخذ نفساً من سيجارة تطمئن إلى أصابع مترفة لا تعاملها بقسوة . واستعرضهم بنظرة كاسحة أحس بها تنفذ من خلال قميصه وتفضح الثقوب الثلاثة التي في فانليته الداخلية .

قل أينا اخترت . .

هذا النظيف اللامع ، أم ذلك المستطيل الوجه كحصان ؟ لا تطل عذابنا ، لا تقل بوجهك الذي لا يقول شيئاً بأننا بلداء وصعاليك ، ولا نستحق ان نعيش بمبلغ يوازي ضعفي ثمن حذائك . .

وازداد نقر الالم الحاحاً .

وفكر في ان يقول شيئاً ، أن يسأل عن معنى هذه النظرة التي تستقطر من أجسامهم العرق الغزير .

أخيراً تكلم :

قال : « سأدرس الطلبات وستتصل بكم السكرتيرة إذا جد شيء » . . ولم يفتح واحد من الثلاثة فاه ليقول شيئاً . كانوا يعرفون ان الطرد يمكن ان يقال بأشكال كثيرة قد لا يعوزها التهذيب أحياناً .

واستداروا معاً بحركة اوتوماتيكية وانسلوا من الباب، اللامع المقابض كأنهم دمى أراجوز تحركها خيوط خفية مشدودة الى المصير الواحد .

وقطعوا الممشى الطويل ثم هبطوا السلم بخطوات ذات ايقاع موحد . . واتأدوا امام الباب ، وتطلع الواحد منهم إلى الآخرين بنظرة غير حامضة ، وتناول النظيف المصقول منهم علبة سجائره وقدم واحدة لكل منهما ، توهجت بعود الثقاب الذي قدمه الثاني ،

ولم يكن معه ما يقدمه غير يد مدها للاثنين . ثم مشى كل منهم في ناحية ، وابتلع ضجيج الترام خطواتهم الموحدة ، وغامت ايقاعاتها التاعسة بين صخب الدواليب الزاحفة ، وصياح الادلاء ، وتدافع القطيع الكبير الساعي في مصنع الرزق الكبير . .

# الفيضان

لولا تلك المصابيح الصفر المعلقة على أعمدة النـور تتحـدى جهامة الليل الأسود في يوم شتاء ، ورعونة الجو المطير يرسل على بلاط الساحة خيوطاً موقعة لبدت ( ساحة البرج ) مدينة للأموات .

لم تكن دور السينما المنتشرة على أطراف الساحة قد لفظت بعد تلك الكتل البشرية التي ترامت فيها تحـدق إلى الحياة كأنمـا هي لا تعرفها إلا على الشاشة لذا فقد بدا المكان ساكناً كئيباً لا تلون كآبته الا تلك المصابيح المعلقة ورائحة الشاورمة تدور على الاسياخ الحديدية القائمة في زوايا بعض مشارب الساحة .

ومدّتْ رمزية عينها على مدى الزقاق الجانبي الطـويل الـذي تتعـاطف فيه نوافـذ الشـقيات ، وكانـت هنـاك رؤ وس مدلاة وابتسامات تزيدها الاسنان الذهبية تعاسة ، توزع دعوات الشقاء .

ولم تكن رمزية قد هيأت نفسها بعد ، كانت ما تزال تحمـل وجهها الاصفر ، وتدع خصلات شعرها المصبوغ تلتف على عنقها

الذليل في غير احتفال ، وإلى جانبها نفاضة سجائر تكوم فيها عشرون عقباً او يزيد .

وتقلبت في فراشها التعس ، وفتحت رسالة سقيمة الخط تقرأها للمرة العشرين ، تحمل طوابع غريبة حملها اليها البريد من رفيقتها ( نظيرة ) التي رمت اليها الليالي ببحار مغربي أحبها فتزوجها وحملها إلى قريته تعايشه وامه هناك .

« يا اختي لقد كتبت هذا المكتوب عشر مرات قبل ان أبعث به فأنا لا أحسن كما تعرفين الخط . . أنا بخير لا ينقصني إلا مشاهدتك . . آكل واشرب وأنام على فراش نظيف . لا تحيا معه غير امه العجوز ، وهو إذاً لم يكن مسافراً .

إنه طيب عطوف ولو انه يضربني أحياناً عندما نتشاجر ، ولكنه لا يسبّني ، وقد اشترط علي ألا أدهن وجهي بالاصباغ وأن أطيع أمه وأقوم عنها بكنس البيت . .

سلمي على الكل ما عدا ( نينا ) فأنا لا أنسى انها حاولت ان تفسد عليّ هذا الزواج . . » .

وطوت رمزية الرسالة وتنهدت ، كانت هذه صديقتها الوحيدة ولما حملها البحار الغريب شجعتها هي كثيرا ، ولم تتمن ان تجمعها بها الايام فمثلها لا ترجو شيئاً كهذا لمن تحبهم .

لقد ودت أن يدوم زواجها فاللعبة عادة غير مضمونة . ما أكثر

الشقيات اللواتي تزوجن ولكن ما تكاد وجوههن تغيب عن زقاق الخطيئة حتى يعدن اليه .

وهي لا ترجو لنظيرة التي تحبها أن تعود . آه لو يحملها هي أيضاً بحار غريب .

وتأوهت رمزية في تعب ، ثم تذكرت بأن شعرها ما يزال منكوشاً ، ووجهها لم يختف تحت اصباغه الكثيرة بعد .

والقت الى الزقاق الاسود نظرة مثقلة بالهموم وكانت رؤوس الشقيات ما تزال ممدودة تتطلع بفضول إلى رأس الزقاق حيث تحلقت جماعة حول حانوت الشواء كأنما هم يستمعون إلى شيء غير حافلين بالمطر .

ولم تحفل رمزية بالمجتمعين لعلهم يسمعون واحداً من هؤلاء المتحذلقين الذين يلوكون كلاماً لا تفهمه ولا تتلقاه عادة الا بشتيمة .

وظل المطر يغسل بلاط الزقاق المرصوف وظلت رمزية تحاول ان تقوم لتغير من حالها فيقعدها كسل ثقيل مغموم .

كانت تشتهي ان تدفن رأسها تحت اللحاف وتنام ، وتنام طويلاً او تموت فلا تستقبل خنزيراً قذراً وسخ الأظافر كالذي استقبلته أمس . . . ولكنها تحاملت وقامت وما كادت تشد عنها ثوبها حتى دفع الباب ودخلت صاحبة لها تقول :

ـ أعرفت ماذا قال الراديو ؟ فيضان في طرابلس . . الماء أعلى من الاسطحة والمدينة كومة طين . . وعدد الموتى لا يعرفه إلا الله .

وحاولت رمزية ألا تكترث ولكن صاحبتها الثرثارة هزتها وقالت . . قولي شيئاً الستِ يا تعسة بنت البلد ؟؟

وتركتها دون ان تغلق الباب وراءها ، فتسرب اليها من الباب المفتوح صوت المذيع يصف ساعة الهول بدراماتيكية ما لبث الانفعال ان أطاح بها فراح يقرأ النشرة بصوة يختنق بكاء .

وسمعت رمزية وكادت دموعها تسبق كلماته .

وسكت المذياع ليطغي صوت المطر وهو يرسل ايقاعه الحزين . واتكأت هي على الباب تحاول ان تهدهد جيشان نفسها وتقتنع بأنها ليست من هذا كله في شيء ، كأن لا يعنيها ان تقوم البلد او تقعد ، يروح رئيس ويأتي آخر ، تمضي وزارة وتجيء غيرها ، تتواتر الأحداث وتتوالى الوجوه ، لم يكن يهمها ان تلم بشيء . أحسن الانباء في زقاقها ان تأتي سفينة ، أو يزور الميناء اسطول .

وبعدها ما لها بمن يعيش او يموت ، يقوم أو يقعد ، يرتفع او يخذل ، ان مطلبها ليس بأبعد من زقاق الشقاء فلم أتت هذه السيول تغسل حقدها وتحسسها بأنها ملزمة بأن تتألم ، ملزمة بأن تحس ، بل ملزمة بأن تبكي .

لم لا يتركونها في حياتها الانسلاخية .

ترى هل أحست بها المدينة الغارقة حين لفظتها قبل خمسة عشر عاماً .

هل أسف لها أحد جيرانها ، معارفها ، الناس الذين خدمت في بيوتهم حين أغواها نخاس وجاء بها الى هذا الفم الأسود الذي لم تخرج منه قط ؟ والذي علمها بأن تعيش بالحقد وللحقد ؟ .

فلم جاء هذا الجهاز يفتح في نفسها جروحاً ، ويحملها ـ رغم حقدها ـ الى الحارة التي كان أبوها فرّانها قبل أن يموت .

وكادت تشم في الذكرى رائحة الارغفة السخنة فمسحت دموعها وهي تتلقف الصوت الباكي يقول :

( واجتاحت المياه الثائرة محلة الجسر ، باب الحديد ، التبانة ، الملاحة ، السويقة ) . .

ما أبشع الطبيعة ، ما أكفر بطشها إذا ثارت . .
وظلت تبكي .

لعل بيتها الذي فتحت عينيها عليه في محلة ( الجسر ) قد غدا كتلة طين ، فمسح الأثر الوحيد الذي يذكرها بالصغيرة التي كانت تلهو في ( جورة ) امام نار الفرن ، تدس الجفت من تحت ذراع ابيها ، ولا تخرج الا ووجهها مستدير أحمر كواحد من تلك الارغفة الشهية السخنة .

ولعل أهل الحارة الآن ، أم علي القابلة . . حسين البقال ،

الحاج سعدي المقرىء الضرير قد باتوا الآن جثثاً تطفوا على سطح الماء كسمكات خنقها ( التوربيد )

وكان المطر ما زال يرسل ايقاعاً حزيناً وهي واقفة قرب الباب تتلقف الصوت المخنوق يرجو المواطنين ان يجودوا مما لديهم للمدينة العائمة .

وتلفتت في الغرفة العارية إلا من صور الممثلين المقصوصة من الصحف والمعلقة على الجدران ، ومن سرير واحد واريكة تسند رجلها المكسورة ركيزة خشبية .

إن الراديو يجب ان لا يبلغ من نفسها أبعد من هذا . لقد كانت الدموع هي كل رصيدها وقد سحّتها فماذا بعد ؟

ثياب ؟ الناس لا يحفلون بملابس غانية .

نقود ؟ من قال ان مثلها يعرف نعمة الدرهم ووراءها شخصية كأم نعمة . .

أجل ليسكت هذا الصوت فهي أفقر من أن تقبله . . يكفي انه مسح كفرها . . فماذا يبقى غير هذا . .

وسمعت صوت أم نعيمة يلعلع عند جارة لها فتذكرت أمراً . .

ورفعت يدها تسوي شعرها المنفوش وتنثر البودرة فما تلبث ان تجرفها الدموع ، فتعيد نثرها من جديد . وجلست تنتظر ان يفتح الباب فالليلة كثيرة المفاجآت . ان تطل ام نعيمة ومعها زبون . .

ولكن بابها لم يقرع ، فجلست وحيدة تبكي . . . وقد اختلطت في أذنيها أصوات ضحكات حادة تطلقها جارة مشغولة ؛ وايقاع المطر الحزين على بلاط زقاق الشقاء .

## بنك الدم

لم تكن ممن يكذبن بسهولة . . . ولكن لما سألها موظف شباك الاستعلامات ماذا تريد استطاعت ان تخنق اضطرابها وتشد على نفسها وتقول بطريقة توحي بالثقة . . . انها تبغي بيع دمها . . ولما عاد يسألها : « الديكِ تصريح من الطبيب ؟ » تطلعت اليه بعيني صبية حلوة فخلاّها تدخل . . وأشار لها بيده يعين المكان . فخطت في وجل وهي تتلفت وراءها خشية ان يعود اليها الموظف فيكتشف كذبها ويفسد عليها مغامرة ظل التفكير بها يأكل أعصابها طيلة أسبوع . . . ولم تطمئن إلى حالها إلاّ بعد ان انتظرت خمس دقائق وراء شجرةورد كثة قبل ان ترفع عينيها تحاول تهجئة الكلمات الافرنجية التي تعلو الباب . . . وفكرت في ان تدفع الباب وتدخل ولكنها آثرت ان تتريث حتى تسأل واحداً ممن يمشون بثقة في الممرات المرصوفة التي تصل بنايات مستشفى الجامعة الاميركية ببعضها . . . ومرت فتاة شقراء فاعترضتها وطلبت ان تدلها على المكان الذي يمكن ان تبيع له دمها . . . ـ تريدين بنك الدم ؟ أهذا هو اسمه ؟ . . أي

اسم عجيب هذا . . . ولكن ماذا يعنيها الاسم ما دام هو المكان الذي تريد ؟ . . وتقدمّتْ إلى حيث أشارت الفتاة ومدت يدها تدفع الباب ودخلت لتتلقفها عيون كثيرة مبثوثة في زوايا الغرفة . . وسمّرها خجلها ولكنها عادت تجر رجليها لتجلس على المقعد الأبيض الطويل . هي تتحاشى ان ترفع وجهها الى الناس الذين تجمعهم الغرفة على غير ميعاد . واستنتجت بعد أن اطمأنت إن مجلسها ـ انهم ليسوا من الاطباء ولا الممرضات فليس بينهم واحد سلم حذاؤه من رقعة . . . هكذا فهمت من الارجل الممدوة قبل ان تصافح عيناها وكانوا كلهم رجالاً . . . هكذا كانت أحذيتهم تقول . . . ترى هل سخرت بها جارتها حين أكدت لها انهم يقبلون ان يشتروا دم الفتيات وبالثمن نفسه . . . إن أم ناصر لا يمكن ان تخدعها فهي تعرف كل شيء عن العملية ، لقد باعت دمها ثلاث مرات ، وكانت في كل مرة تقبض خمسين ليرة ، كما كان ابنها ناصر الموظف بالمطافىء زبوناً دائماً ، فهو لا يفعل شيئاً إلا ان يأكل ويبيع دمه وينتظر الطوارىء . ولم تطمئن إلى المكان ولكنها نسيت خوفها إذ سمعت واحداً يتحدث مع رجل يبدو انه جديد على المكان مثلها فيقول بأن لا بد من فحصه اولاً ، ليتأكد الطبيب من أن صحته قوية كالصخر . قوية كالصخر . . . أهكذا يجب ان يكون بائع الدم . . . انها قوية لا تذكر انها مرضت الا مرتين بعد ان طعمتها المدرسة ضد التيفوئيد . . ومرة لأنها أكلت خياراً باسراف . . فانتابها مغص قطع امعاءها . ولكنها الآن قوية ووجهها دائماً كتفاحة حمراء . . . ان هؤلاء

المتجمعين لا يمكن ان يكونوا أقـوى منهـا . . . ولأول مرة رفعـت عينيها تنقلهما من وجه لوجه . . . مجموعـة وجـوه قد لا تتشابـه في تفاصيلها ولكنها تتشابه في سواد حدقاتها وذلك الشعر الاشعث الذي يعلو الرؤ وس وتمنت لو تعود فقد انتابها الخوف من جديد . . . إلا أنها ظلت مشدودة إلى المقعد . وفتح الباب وأطلت ممرضة نادت على أحد الجالسين فقام الرجل الذي يخال نفسه قوياً كالصخرة . وحاول ان ينكت فقال : ( ان دمه مرغـوب فيه فالمستشفـى بحاجـة الى دم ثقيل ) وضحك هو من نكتته ، وبصق آخر ومسح بصقته بحذائـه قبل ان تكتشف الممرضة فعلته .

وبـددت هذه الحـركة الوجـوم المسيطـر على الجـو فجـرؤ ت ( نعمت ) ان ترفع عينيها الى الباب الذي قالت عنه ( ام ناصر ) انه ينغلق على ثلاثة اسرة تفصل بينها ستارة ينام عليها ثلاثة زبائن ويتولى امر كل منهم طبيب .

ماذا أحسست حين غرز الطبيب الابرة في يدك؟ لا شيء فقد شد على يدي بقطعة مطاط فخدرت وما عدت أحس ، وجاء بابـرة طويلة غرزها في شرياني فصارت تمتص يدي كعلقـة نهمـة . وكان الدم يجري من يدي إلى اناء زجاجي راح يمتلىء بالسائل الاحمر ، ولما انتهت العملية قمت من السرير وأنا أحس بدوخة تبددت بعـد ان جاءتني الممرضة بكوب من الحليب وباذن يخولني قبض المبلغ . ماذا خسرت ؟ لا شيء . . . لقـد اشتـريت باللـيرات الخمسـين كسـوة

الشتاء ، ليتهم يقبلون ان أبيعهم دماً مرة كل أسبوع . . . حقاً ان أم ناصر امرأة شاطرة ، لقد علمتها ان تحلم بمنفرج حين يلح عليها حرمانها . إن لم تكن هي التي دلتها على هذه الطريقة مازحة حين بكت طويلاً إذ رأت انها ستقضي بفستانها العتيق عيداً آخر ؟ ان الفستان لجديد وكل شيء معجزة قبل عامين وها قد استطال جسمها وامتلأ صدرها وتمزق الثوت تحت الابطين ومع ذلك فانها تصر على فرضه عليها ولا بد لها من ان تقبل إذ تقابل بين ان تجوع العائلة اسبوعاً وان تلبس هي فستاناً جديداً . وكانت تعرف ان هذه المقارنات كثيرة الحدوث في بيتهم ، فقبل سنة اختارت بين ان تشبع العائلة او تذهب هي إلى المدرسة ، فتغلب منطق الخبز . ولقد جاءت إلى المستشفى خلسة ، ركبت الترام الثاني ودفعت الفرنك صاغرة . ان أمها لا تعرف شيئاً عن مجيئها ، وهي أيضاً لم تخبر أم ناصر ، فقد لا تسكت هذه وتسارع تحكي لأمها فتحول بينها وبين المجيء . فاذا نجحت في ان تبيع دمها فستغفر لها أمها حين تعود بالليرات الخمسين ، فهي تحب النقود ، ومن لا يحبها ؟!!

وفتح الباب وهب مع رائحة العقاقير صوت الممرضة ينادي على ثان وثالث ورابع ، ولم يبق في الغرفة إلاّ هي واثنان عداها كانا يتحدثان في شغل عنها . وتعبت من الانتظار فقامت وتطلعت من النافذة . ثم عادت وجلست وانحطت عينها على يدها ، يدها التي ستتلقى وخزة الابرة الكبيرة التي تمتص دمها كالعلقة . وتذكرت

الدويدات السود التي كان الحلاق يضعها في وعاء زجاجي يعرضه في واجهة دكانه ويبيعها لمن يشاء علقاً يمتص الدم الفاسد . إن منظرها قبيح كالحيات الصغيرة . وفتح الباب من جديد ونادت الممرضة على واحد لتقول له بأن لا مجال له اليوم وعليه ان يصبر شهراً ثانياً قبل ان يأتي . فثار وراح يقسم بانه لم يحضر إلى هذا المكان إلا منذ شهور غير أن الممرضة سدت الباب وهي تقول ان السجلات لا تكذب . . فخرج الرجل يجر رجليه . فقام معه الرجل الآخر . وظلت وحدها في الغرفة . وازداد خفقان قلبها . . . الابرة النهمة تنفذ إلى شرايينها كعلقة كبيرة سوداء والاناء الزجاجي الأحمر يمتلىء بدمها . وكانت تدوخ لو رأت اصبعها تجرح . . . مغامرة كبيرة في سبيل فستان . . . لماذا تسرعت وجاءت ؟ ليتها لم تحضر ولا كانت الليرات ولا كان الفستان الجديد . . . وخافت أكثر حين فتح الباب وخرج ثلاثة كانت وجوههم في لون الليمون . ونهضت تريد الذهاب حين فتح الباب وانبعثت منه رائحة الدواء مع صوت الممرضة تسألها ماذا تريد .

وتلجلجت ، ولم تقل إلا بصعوبة انها تريد بيع دمها . وتفحصتها الممرضة وحاولت ان تبتسم لها وهي تقول : « روحي واكبري عشر سنوات أخرى قبل ان تعرفي هذه التجارة ، فأنت بعد طفلة » . . . واستدارت نعمت لتنصرف وهي تحمل رأساً أثقلته رائحة العقاقير وأفزعته خناقة تنتظرها في البيت. تتراقص أمام

عينيها ابرتان ، واحدة تأكل من دمها فلا تشبع ، وأخرى تشد الحرير إلى الحرير في حلم لم تشأ « الابرة العلقة » أن يكون . . .

## خبز الفداء

ود حين ناوله ابراهيم غليونه محشواً بالتبغ لينفس به عن ألمه لو يدعه يتصرف كطفل فيبكي . . انه يشعر بالدموع تنبجس وتغرق عينيه ، فيدير رأسه ويمسحهما خفية بطرف كمه ، ويروح يداري ألمه الخجول بأن يمد رأسه من فوق المتاريس، ثم يلتفت لرفاقه فيجد في سكوتهم تفجعاً يدفع الدمع إلى عينيه ثانية ، ويرى في كل شيء في هذا الليل الصامت الذي يطل عليه هلال غائم بعيد . ألماً يجسّد انسحاقه . . . وكان كل ما في الكون يدري بأن له حكاية ، وان أكثر ما يشتهيه في هذه اللحظة ان يمارس ترف الحزن بتلقائية فهو الساعة أضعف من ان يصطنع اي جبروت ، وأكثر ما يريده هو ان ينفض اخوانه من حوله قليلاً ليعود انساناً يخلع قناع الصلابة ويبكي ، يبكي بلا خجل . ورفع كمه يمسح عينيه وأحس بخيوط القميص الصوفي تخدش عينيه . . . وتذكره بتعويذتها التي يلبسها والتي سترد عنه ـ كما قالت ـ كل رصاصة غدارة .

أجل انه يتذكر تلك الليلة . . .

ليلة كهذه هلالها صغير وبردها يقرص الاجساد وكان مكلفاً بحراسة مستشفى صغير اقامه جيش الانقاذ في بيت من بيوت المدينة مؤلف من أربع غرف حجرية وحديقة صغيرة ، وكانت اسرة المستشفى الثمانية مشغولة بثمانية جرحى حملهم اخوانهم بعد معركة انصبت النار فيها من مستعمرة نهاريا اليهودية ، على القرى العربية في قضاء عكا واحضروهم ليسعفوا بالمستشفى . ثم اختارته لجنة الانضباط ليقوم بحراسة المستشفى الواقع في طرف من أطراف المدينة تفرقت فيه البيوت وتباعدت . أجل باردة كانت الليلة ، ولم تحمه كوفيته ولا معطفه السميك من وخزات البرد اللاذع ، فكان ما يفتأ يتمشى ليمنع الدم من ان يتخثر في شرايينه ، ثم يعود إذا ما تعب ليتكىء الى جدار المستشفى قريباً من الباب ، ويرقب من بعيد دور المدينة التي تنام نوماً تهدده أية غارة مفاجئة ، ولا يدري كم كانت الساعة بالضبط فقد خبت الانوار الا تلك التي تتوج أعمدة الطرق العامة ، وسكت الليل الا من أصوات ابن آوى ، هذه التي تبلغه من بعيد . .

أجل لا يدري كم كانت الساعة بالضبط حين شعر بها إلى جانبه في ثياب التمريض البيضاء تسأله إذا كان يريد فنجاناً من الشاي ، انه لم يفكر في الشاي ولا في أي شيء آخر . . ولكنه أحس بأنه يريد أي جسم حار يشد إليه أصابعه المقرورة . فقبل شاكراً . ولما عادت تحمله اليه جرعه في اربع رشفات حتى لا يدعها تنتظر طويلاً ، ولما رده اليها فارغاً غمغم بكلمة شكر ، ولكنه فكر بعد ان

انسحبت بأنه كان من المناسب ان يلاطفها بسؤ ال ، وأدار رأسه يبحث عن ظلها خلف النافذة ولكنها لم تلح . وفكر في ان يشكرها في الصباح . . ولكن من عساها تكون ؟ . . ان هناك ممرضتين ، وهو لم ير منها إلا بياض ثوبها . ولكنه في الليلة الثانية عزم ان يكون أكثر طراوة لو حملت له الشاي . . وانتظر طويلاً ولكنها لم تحضر . . وقال في نفسه انها مشغولة عن شايه بمن هم أحوج إلى عطفها . . فلماذا لا يطرق الباب ويطلب الشاي بنفسه ؟ واستحيا ان يفعل . . وقد كره ان يكون متطفلاً على وجه ما . . ها قد خبت الأنوار ونامت المدينة وحملته واخوانه مسؤ ولية السهر . وفي مثل هذا الوقت بالأمس شرب شايها . . ورفع اصابعه التي أثلجتها ماسورة البندقية واشتهى شيئاً حاراً يبعث فيها الحرارة . . ورفع يده الى فمه لينفخ فيها وإذ بشجبها الابيض يجبهه بصوتها يقول : « لقد احضرت لك شايك دون سؤ ال » . . لن ترفضه بالطبع . . »

ورفع عينيه وحدق في وجهها . . ومد يده المقرورة ليحمل الفنجان . . ورأى من اللياقة ان يقول لها شيئاً قبل أن يشرب . .

ـ ألا تجدين المهمة شاقة عليكِ ؟

وفي حدة لم يتوقعها ردت عليه ؛

ـ هل تجدني أضعف من الواجب ؟

ـ أنا . . لا لا أبداً . .

ولم يدر ما يقول فرفع الفنجان إلى شفتيه ، وجرعه بسرعة

سلقت حلقه . . وأعاده اليها دون شكر . ولما ابتعدت قليلاً . . ناداها . . لماذا لا يسألها عن اسمها ؟ . . ماذا في الأمر . .

ـ يا آنسة . .

ووقفت . .

وتقدم منها :

ـ آسف . . هل يمكن لي أن أعرف اسمكِ ؟

وضحكت قبل ان تقول :

ـ لم لا . . نحن هنا اخوة . . اسمي سعاد . .

ـ وأنا رامز . . ورفاقي يسمونني العريف . . ألا نتصافح ؟

وأعطته يدها ضاحكة ثم انسلت بخفة كما جاءت . .

سعاد . . عجيب وهذه سعاد أيضاً . . يبدو ان له حظاً مع الاسم . . فقبل أيام قدمت اللجان النسائية في البلد هدية إلى الحرس القومي من القمصان الصوفية والبطانيات . . قامت بحياكتها فتيات المدينة وكان في كل جيب بطاقة تحمل اسم الفتاة التي حاكتها وعبارة تشجيعية قصيرة . . إنه ما يزال يحتفظ بالبطاقة . . ومد اصابعه وتحسسها وأخرجها ثم أشعل عود ثقاب اضاءت معه الحروف « سعاد وهبي » وتحت الاسم كانت هذه العبارة : ( ارجو ان تكون من نصيب بطل ) .

وأكلت النار العود واختفت الكلمات ، فأعاد البطاقة إلى جيبه . أتكون هي ؟ لو كانت هي بنفسها أفلا تكون صدفةً حلوة ؟

والتفت إلى الباب . ولكنه كان مغلقاً . .

وفي الليلة الثالثة تعمّد أن يبدأ نوبة الحراسة باكراً ليجد مجالاً لدخول المستشفى والسؤال عن الجرحى . . كان الباب مفتوحاً فدخل . . ورآها تحمل صينية عشاء لأحد الجنود فحياها . . وسألها إذا كان بوسعه ان يزورهم . . فقالت :

ـ لم لا . . أريدك أن ترى حسّان . . ليقصّ عليك قصة المعركة ، لقد سمعتها منه عشرين مرة ، ولن يؤذيني أن أسمعها للمرة الحادية والعشرين .

وتبعها . .

وأمام سرير حسان المضمد الرأس وقف كما وقفت هي وضحكا وهما يستمعان الى الجريح يقول :

ـ إن الأخت سعاد ممرضة صارمة تريد له أن يتمدد كالجثة ، وتحرّم عليه التدخين باخفائها سجائره . .

وأتيح لرامز ان يلحظ وهي تضحك ان لها أسناناً شديدة البياض وان لعينيها بريقاً يعكس إرادة لا ترد وشجعه الجو على أن يسأل :

ـ ولكن ألا توافقني على انها طيبة .

ـ طيبة ؟ انها أطيبهن جميعاً . . أكثر طيبة من أمي العجوز . . ما تفتأ تدور بيننا تسقي هذا ، وتطعم ذاك ، وتلبي اجراساً تقرع في كل الغرف ، فاذا وجدت لحظة للراحة جلست قريباً من الباب

وشغلت نفسها بالحياكة .

ـ حياكة ؟

وتذكر القميص ومد يده فحل أزرار معطفه السميك وسترته . وكشف عن قميصه الذي يرتديه . واقترب خطوة منها وقال :

ـ أتعرفين هذا القميص ؟

ـ أوه أكان من حظك ؟

ـ ألا أستحقه ؟ إنني أحتفظ بالبطاقة . . لأتذكر دائماً مسؤولية البطولة . .

واستدعاها جرس ملحاح . فتركته وحسان الذي سأله عن سيجارة أقسم ألا يدخنها إلاّ إذا سمحت له . .

ومضى اسبوعان وتماثل الجرحى للشفاء فغادروا المستشفى إلاّ واحداً نقل إلى مستشفى آخر . . وانتهت مهمته في الخفارة . وعاد إلى عمله في تدريب طوابير الفتيان على حمل السلاح . وكان يستقبل طابوراً ويودع غيره حتى إذا هبط الظلام حمل بندقيته ومضى إلى الخفارة الليلية فلا يعود إلا وقد تلونت السماء بأضواء فجرية ليرتمي على سريره الحديدي في الغرفة الوحيدة التي يتألف منها بيته . . وعندها يجد وقتاً ليفكر فيها . .

لقد انقضى أسبوع لم يرها خلاله فأين عساها تكون . . لماذا يحس بأنه مدفوع إلى الاهتمام بها ؟ مدفوع إلى محبة القميص الذي

حاكته ؟ . . ولقد اكتشف بالأمس شيئاً ، فحين قام يلبس في الصباح حمل القميص في يده وراح يتأمله . . لقد عاش أياماً بين يديها وهي تبنيه غرزة على غرزة دون ان تدري لمن يكون . . لعلها رسمت في ذهنها صورة للرجل الذي سيرتديه . وهي بالتأكيد قد اختارته ان يكون طويلاً عريض الكتفين . . رجلاً تعلق عليه أمل البطولة . . والتفت إلى نفسه في المرآة المعلقة على الحائط . . وتحسس ذراعيه المفتولتين . وضحك على سخفه وهو يتأمل نفسه . . ولكن أي ضير في أن يكون سخيفاً فيرفع مثلاً القميص ويشمه طويلاً ويقبّله أيضاً ؟ . .

ورآها في الطريق . لم تكن في ثياب الممرضات . . فاعترض طريقها قائلاً :

ـ كدت لا أعرفك فما كنت يوماً إلا بيضاء . . وأعطته يدها يصافحها وقالت :

ـ لقد غادرنا المستشفى ، إنني لا أجد ما أفعله اليوم ، وأنت ماذا تفعل ؟

ـ طوابير تدريب في النهار ، خفارة في الليل ، ولا شاي !!

ورنت ضحكتها الفضية . . وظبطته يتطلع اليها فاحمرت . . وهمت بأن تمضي وبسرعة قبل ان يضعف أمام خجله سألها شيئاً :

ـ أرجو ألا تظنيني وقحاً . . هل أستطيع أن أراك في مكان ما . . ؟

ـ بلدنا أصغر من ان تتسع لنا . .

ـ ولكننا اخوان سلاح . . إنني أدرب طوابير من الجنسين على استعمال البندقية . . تعالي إلى نادي الميناء سنتحدث قليلاً بعد ان أفرغ من التدريب . .

واتفق على حضورها في الثالثة . ثم انهمك في تدريب طابور ناعم كيف يقف وقفة لا ترتعش تحت بندقية ثقيلة . . ولمحها تدلف . . فتجاهلها حتى انتهى وصرف تلميذاته واتجه يحييها ويقدم لها كرسياً ويسحب لنفسه آخر . .

ـ ألست متعباً ؟ . .

ـ وأينا لا يتعب ؟ . . ولكنني بعد ان عرفت ما يدور في مستعمرات الصهاينة من تأهب وتعبئة قوى تمنيت لو كان يومنا ستين ساعة . . إن أمامنا عمليات رهيبة .

ـ أخائف أنت ؟ . .

ـ متحسب . . لسنا في موقف هين . . يخيل إليّ ان اليهود زرعوا مواسمهم أسلحة ، وملأوا بطون مستعمراتهم بها . لقد اكتشفنا أشياء كثيرة . .

ـ هل ذهبت بنفسك ؟ . .

ـ كثيراً قبل أن يتوتر الموقف . . أما الآن فلا أستطيع . إنني على لائحتهم السوداء . .

ورآها تتأمله ثم انفرجت شفتاها وتألقت في عينيها تلك النظرة

الحازمة . .

ـ أتدري لقد بت أصدق أنك بطل ؟ . .

ـ بطل . . لا أظن . . ولكن بطاقتكِ توحي إلي بأن أكون . .

ـ أما تزال محتفظاً بها ؟ . .

ـ هي ذي .

وأعطاها لها ولما مدّ يده ليسترجعها ضغط على يدها قليلاً ثم أرخاها . وتركها تداري خجلها متطلعاً إلى البحر الأزرق أمامه .

كان الوقت ربيعاً . وربيع فلسطين بحر أزرق تتهادى عليه أشرعة المراكب البيضاء نهاراً ، وترصعه فوانيس قوارب الصيد ليلاً ، وبساتين برتقالٍ يكثّف عبقُها الهواء . . وفي ربيعه ذاك عرف شيئين . . الحب والحرب . . وكان الاول يعطي معنى للثاني ، فالحرب ليست عدواً يقتل لشهوة إنما هي حق حياة للأرض التي يحب . والفتاة التي يحب ، إن فلسطين ليست بحراً ومراكب صيادين ، وليست برتقالاً يتعلق كالذهب . وليستْ زيتوناً وزيتاً يملأ الخوابي . . إنها عينا سعاد السوداوان أيضاً . وفي عيني سعاد رأى خير فلسطين كله . رأى ظل بيت سعيد له . وزوجة تنجب له أبطالاً صغاراً وتجعل من حبها معنى لوجوده . .

ومع كل اطلالة صباح . . كان يستقبل خيالها . . جنباً إلى جنب مع أنباء المعارك في صحف الصباح . . معركة القَسْطَل . هجوم قومه من مثلث الرعب على قرى الاعداء . . غاراته واخوانه

على المصفحات اليهودية المتسللة على طريق حيفا ـ عكا نهاريا بطولة قومه في سَلمَةَ في كل مكان . .

ثم كانت كارثة حيفا . .

لن ينسى ذلك المساء . .

كان مشغولاً بصف التدريب . . حين التفت إلى البحر فاذا بعشرات المراكب المحملة بالناس . . وتجمهر أهل مدينته على السور وفي منطقة الميناء يستطلعون . . كانوا على علم بالمعارك التي تدور في حيفا ، وكانوا يدرون ان سلطات الانتداب قد مكنّت الصهاينة من المراكز المحصنة سراً ، في حين ادعت انها لن تتخلى عن المدينة إلا بعد انتهاء فترة الانتداب بشهور ، ولكنها فجأة أعلنت عن اضطرارها لأخلاء المدينة .

وانصب الهول من الكرمل على العرب الذين يعيشون في السفوح ، ومهدت السلطة لحالة ذعر بحرب اشاعات فتحت معها الميناء ، وأطلقت سفنها تحمل كل راغب في رحيل ، فتكدّسوا فيها والنار تلفظ هولها عليهم من الجبل .

ولفظتهم السفن على ساحل عكا . . كتلاً بشرية . . يئن بعضها من الجروح وبعضها من الجوع ، وبعضها من الفزع . .

وامتلأت بيوت مدينته ، مساجدها ، أديرتها ، ساحاتها بهم . .

وتحمّلت مدينته الصغيرة عبء تدبير طعام ومأوى لهذه الآلاف . .

وفي تلك الليلة رأى سعاد مع عشرات المتطوعات يستقبلن الجرحى في الميناء ويوزعنهم على المستشفيات والبيوت . . وبدأت حرب الاشاعات تلعب لعبها في الاعصاب . .

استيقظ في صباح اليوم التالي على قرع شديد على باب غرفته وفتح الباب وذهل إذ رآها . .

كانت تبكي . .

قالت له ان أخاها قد دبر شاحنة حشد فيها كل ما يُحمل ثم وضع فيها زوجته وأطفاله ونفسه ليرحلوا للبنان . . وان عشرين أسرة من حيها قد فعلت مثله . .

وقد فرض عليها أن تصحبهم فرفضت ، وقاومت فضربها ، فلم تجد أمامها إلا الفرار .

إنها آخر من يسافر . .

رأذهلته المفاجأة . . لم يدر ما يقول لها وظل صامتاً ، ولما قرعت صدره بقبضتها سأل :

ـ هل فعلتِ هذا بسببي ؟

وانفجرت في وجهه :

ـ لا ليس بسببك . . صحيح انني أحبك . . ولكنك لست

كل شيء ؟

قالتهـا وانصرفـت . . وفتـح البـاب وخـرج إلى المدينـة . . عشرات السيارات كبيرة وصغيرة ، محملة وفارغة ، أطلقت دواليبها للريح . . وخلته مذهولا . . لا يدري هل يبكي ، هل يصيح ، هل يقذف هذه السيارات بحجارته ؟ . .

وفي أسبوع فرغت المدينة إلا من شاكي السلاح . . ومن بضع ممرضات موزعين على المستشفيات الصغيرة ، ومن النازحين اليها من حيفا أو القرى ، ولم يعد يجد وقتاً للقاءاته بسعاد . . فأعـداؤه في الشمال وفي الجنـوب يتربصـون الفـرص ليطبقـوا على المدينة . . كان في النهار يتسلل إلى القرى يجمع البنادق والذخيرة ، أما لياليه فللحراسة مع خمسة غيره يقبعون وراء المتاريس المقامة على ظهر مصنع للسجائـر تعطـل فيه العمـل ، كان لا بد للمدينـة من الصمود حتى تبدأ معركة أخرى على مستوى جيوش بعد انتهاء فترة الانتداب . .

هذه هي مهمته التي رسمتها اللجنة القومية للمدينة . . وحين كان يجد وقتاً يسترخي فيه كان يجد وقتاً ليفكر بسعاد وليتساءل كيف تراها تعيش ، وتحت أية ظروف ، وصعق مرة حين رآها أمامه . .

كانت تلتف بمعطف وقد حملت صرة كبيرة . .

وحار كيف يتلقاها ولكنها هوّنت عليه الأمر حين فتحت الصرة وقالت موجهّة حديثها لكل الرفاق :

ـ لقد خشيت اللجنة أن تفرغ مؤ ونتكم فتطوعت لحمل هذه الاشياء . .

وفتحت الصرة على خبز وسجائر وحلوى ، وفتحتْ عينيها على نظرة استقطبت كل شبوق العالم ، اثارت انفعاله لدرجة ودَّ معها لو يضمها أمام رفاقه جميعاً . .

ولقد رأى من حقه وحده ان يمشي معها قليلاً وهي عائدة ، وأن يمسك بأطراف أصابعها بيد مرتعشة ، ثم يرفعها إلى فمه دون ان يجد ما يقوله غير أن يتوسل اليها ألا تعاود مثل هذا الجنون ، ثم ابتعدت ووقف يرقبها حتى ابتلعها احد المنعطفات .

وتكررت زيارتها . .

لم تكن تلبث أكثر من دقائق ولكنها كانت كافية لتشحن احاسيسه وانفعالاته بشكل يتعبه ويسعده معاً . .

إلى أن كان أول الاسبوع . .

واشتدت المعركة وجأرت النار طيلة ليلتين ونهار كامل وقسم من النهار الثاني . .

كانت سيارات الاعداء المصفحة تتجه على الطريق العمومي إلى نهاريا . وكان عليهم أن يقطعوا عليها الطريق بالمدافع المبثوثة على الدور القريبة من الطريق . .

ولم تهدأ المعركة إلا في الثالثة من عصر اليوم التالي . فانقضوا

على المتاريس واستلقى بعضهم على الأرض ونـزل هو يغتسـل من حنفية الحديقة تمهيداً لزيارة للمدينة يستفهم فيها عن خطة الحـرس القومي في سحب السيارات المصابة إلى داخل المدينة . .

وكان الصابون يغمـر وجهـه حـين انبعـث صوت رصاصـة فثانية ، فسارع يزيل الصابون عن عينيه حين ثقب اذنيه صوتها . .

والتفت إلى باب الحديقة فرآها تمرق منه . . وصرتها بيدها أما الأخرى فكانت على صدرها . . لم يصدق أن بها شيئاً وقد كانـت واقفة على قدميها ، ولكنها ما لبثت ان ارتمت عليه ، وبدأ الدم يندلق من صدرها ، فسد جرحها بيده . ونادى على رفاقه الذين سارعـوا بالقاء ستراتهم لتمتص دمها المسكوب .

وفتحت فمها لتقول شيئاً ، ولكن الحشرجة خنقت كلماتها ، ثم انتهى كل شيء بشهقة !. .

حدث هذا بسرعة لم يصدقها . . دقائق وضعـت حداً لكل شيء ، فكيف ، كيف لم يجمّد الزمن . . كيف تركها تموت ؟ كيف لم تنتفض تحت قبلاته ، نداءاته الملتاعة . . كيف لم ترتعش تلك الجفون وهي تشرب كلمات حبّه الأولى . .

ماتت . . كيف ورائحة شعرها في أنفـه ما تزال . . وحـرارة يدها تأكل كفّه ، وطعم شفتيها الرطبتين على شفتيه . . لم يكن في نظرتها موت ، في عينيها اللتين تتحديان أي شيء . . كان فيهما حب

ووعد بالحياة . .

ويفرك عينيه يطرد الكابوس ويشدّ على الغليون الذي قدمّه له ابراهيم فلا تنغرز اظافره في راحته وهو يقرأ في عيون رفاقه . .

أجل ماتت ، وانتزعناها منك ، ودفناها على الرابية هناك ، وزرعنا على قبرها علماً ، وكرّسناها بطلة . .

كانت تحبّكْ فباتت رمزنا جميعاً . . ابراهيم ، ووديع وصالح ، وأحمد وعبدالله . .

***

خط أصفر نحيل وبضع نجيمات . . ولا شيء إلا العتمة وأطراف السجائر المتوهجة ، وهم أمام المتاريس بلا نوم أو طعام أو شراب . .

وانقضت الليلة هادئة إلاّ من مناوشات في الفجر ثم سكت كل شيء واستسلمت الرؤوس المتعبة إلى نوم يفسده الجوع وتوقع الخطر . .

ومع الفجر فرك عبدالله عينيه وسأل وهو يتطلع في الصناديق الخشبية المركومة جانباً :

ـ أما من شيء نأكله ؟ . .

وردّ وديع :

ـ أجل هناك جوعنا . .

وسكت . .

وهناك أرغفة سعاد . . لماذا لا يقولونها ، وكانت ملوثة بدمها ، فأي أدام تعس لخبزهم ؟ . .

لقد بدأوا يجوعون بشكل لا يطاق ، وباتوا عاجزين حتى عن الوقوف . .

وكان رامز يشعر بأن الظروف تتكاثف لامتحانه بشكل مذل ، وبأنه ما من واحد من رفاقه سيجرؤ على أن يفكر في الارغفة إلا إذا عرضها هو . .

وغطى عينيه بيديه ، أهناك تعاسة بعد تعاسة اضطراره إلى أن يطعم دمَها رفاقه ؟ . .

وتطلع إلى اخوانه . كان عبدالله مستلقياً على بطانية ، وكذلك صالح . وكان أحمد جالساً على كيس من الرمل وهو يضغط بطنه بيديه . .

ان واحدهم مستعد لأن يأكل جثة كلب ، ولكن يداً منهم لم تمتد الى الأرغفة المعمدة بالدم . . لقد كان عليه أن تأتي البادرة منه . . ماذا يقول لرفاقه . . خذوا فقد وهبتنا سعاد الخبز والادام . .

وأطرق قليلاً ، ثم تحامل على نفسه ووقف . . إذا كان هو يستفظع الفكرة فإن عليه أن يمضي إلى المدينة ليتدبر لهم ما يأكلونه . .

وحاول ان يقف ولكنه كان ظاهر الخَوَر . . وأدرك رفاقه ماذا يبغي من وراء ذهابه للمدينة ، ان أية رصاصة ستصطاده كعصفور صغير ، فالمنطقة الخلاء بين مركزهم والعمران كبيرة ومكشوفة ، ومرور سيارات مصفحة تحمي نفسها باطلاق الرصاص في كل الاتجاهات متوقع في أي لحظة ، فأمسك صالح به من كتفه واضطره إلى الجلوس . .

فجلس لتتوثب في رأسه طيوف معركة بين جوعه وجوع رفاقه وبين الارغفة الحمراء . .

كانت ما تزال مكومة في الزاوية ، مصرورة كما حملتها سعاد . . ان التجربة شيء يجرح أعصابه ولكن شراء حياة خمسة يجب ألا يخضع لاحساسه الرهيف . .

ولكن أي ثمن سيدفع . . أين الاعصاب التي تحتمل ان ترى يداً تمتد لتمزق رغيفاً واسناناً تدور لتلوك خبزها مغموساً بدمها . . وأغمض عينيه . . لا ، هذا لن يكون . . ولو ماتوا جميعاً . . انهم لا يفضلونها بشيء . . وماذا لو ماتوا . . تموت وهي تحمل خبزهم ، ويموتون لأنهم لن يمسّوا خبزاتها ، فلا يشتري موتَها حياتَهم . سيرفضون خبزات الفداء . . وقد امتدت اليهم ممتحنه انسانيتهم . . أو انسانيته هو على الأقل . . فما ذنب هؤلاء ليجوعوا . . ؟ ولكن ماذا لو جاعوا . . ؟ ليحسبوا ألاّ خبز هناك . . إنهم على كل حال لا يتطلعون اليه. لقد عفّوا واقنعوا أنفسهم بأن

ينتظروا رزقاً غير هذا . . أو يموتوا . . ويموت معهم ثأرها . .

ثأرها ؟ صحيح كيف ينسى ذلك . . ؟ كيف يختار ان يموت جوعاً ككلب ويميت معه خمسة ؟ حقاً ان كثرة تعاملهم مع الموت قد سلبته تلك الصورة المستفظعة . ولكن مهما كان له الحق في اختيار الميتة التي يشاء ، فلن يختار ان يموت جوعاً ، سعاد نفسها ترفض ذلك لبطل . .

وارتعش بألم . .

لقد اكتشف انه في الليلة الأخيرة قد فكر في جوعه أكثر مما فكر في سعاد ، لقد عطلت غريزة الجوع كل احاسيسه الأخرى . يا إلهي ما أفظع التجربة . .

ونادى اخوانه ففتحوا عيوناً تكاد من عيائها لا تنفتح سيدعوهم واحداً واحداً . . ابراهيم ووديع وصالح وأحمد وعبدالله وسيلتفون حوله في حلقة . . ثم ينهض هو ويحضر الارغفة . . وحين تمتد يده ليفك الصرة سيحكي لهم قصة عنيفة تعرفها هذه الارض . . ويعيها ناسها . . قصة افتداء الحياة بالجسد وبالدم . . ثم يحمل خبزاتها وبكل الجو الشعائري الذي يقدم به كاهن كنيسة شرقية خبز المسيح سيقول لهم : « كلو هذا هو جسدي . . وهذا هو دمي فاشربوا . . » وسيأكل هو من الاكسير أيضاً . . وسيستقر شيء من سعاد في أحشائه . . شيء منها . . أجل كيف لم يفطن إلى ذلك قبلاً . . شيء ما يفتأ يتململ ويضج ويطالب ويذكره ان عليه ان يفعل شيئاً لهذا

الجسد الثاوي في طرف الحديقة . .

وقام متحاملاً على نفسه إلى الـزاوية تتبعـه عشر عيون شعـر بنظراتها توثق رجليه . . فتناول الصرة بيد ترتجف . . وفتحها وأدنى الأرغفـة من شفتيه ثم اقتـرب من رفاقـه وقدمهـا راكعـاً وقـال : « كلوا . . ان سعاد لا ترضى لنا أن نموت جوعاً . . »

وغامت الدنيا في عينيه ، ووقع على الأرض فاقد الشعور ! .

# المسافر

فوجئت حين طالعتني لائحة المواعيد التي تتوسط قائمة مطار بيروت الفسيحة فوجدت انِ الطائرة التي تحمل شقيقتي تصـل من القاهرة في السادسة ، وانه يتعينّ عليّ ان انتظر ساعة كاملـة وربـع الساعة . .

ترى هل أخطأ الموظف في تحديد الوقت ، ام انني لم اسمع جيداً . . أم أن قيام الطائرة سيتأخر من القاهرة لشأن أو آخر ؟ . .

لا أدري ، لم تكن مهمة الانتظار بالعملية المستحبة مع هذا الاكتظاظ في القاعة والشرفة والبار ، حتى المجلة التي أحملها لم تكن ذات جدوى وسط الصخب الذي يسود الجو . .

كانت هناك طائرة تقوم إلى البرازيل وأخرى قادمة من الكويت على وشك الهبوط ، وثالثة قد وصلت من بغداد ، ونـاس يودعـون ويستقبلون ، يبتسمـون او يبـكون ، بعضهـم يوزع أشواقـه بكل سخـاء ، والبعض بكل تحفـظ ، وقـوم لا يتعاملـون بعواطفهـم في

مواقف لا تدعو اليها المجاملة الصرف ، أو النفاق الاجتماعي . .

واجلت عيني في المكان أبحث عن زاوية ، ولكنني عدت فآثرت ان أخرج إلى الشرفة اطلق عيني إلى المدى وراء هذه الطائرة التي أوشكت أن ترخي جناحيها لتدرج بعض دقائق في هيبة وجبروت على المدرج الفسيح . .

وكانت عيون كثيرة معلقة عليها . . عيون تكاد اللهفة تقفز منها . . عيون امهات وزوجات واخوة واصدقاء . .

وهبطت الطائرة وفتح بابها ، وبدأ الركاب يهبطون السلم الحديدي ، القصير ، فوجدت ان فضولي قد انتهى عند هذا ، وان لا بد لعينيّ من اثارة جديدة تعلقان بها .

ونقلت قدمي لأمشي حين تدفقت إلى الشرفة كتلة من الناس . . كان يلوح انهم قرويون فقد كانت ازياؤهم خليطاً عجيباً . .

ولم أعرف ما إذا كانوا في اثر مسافر عزيز ، أم ان الطائرة حملت لهم بين ركابها واحداً او أكثر اندفعوا يتلقونه بحماس لا يحسن القروي أن يغلفه ببعض الاتزان الذي يفتعله ابناء المدن . ولكن تساؤ لي لم يطل حين اطلقت فضولي من جديد فحطني عند عيون لا تخلو من بكاء ، ثم التقطت أذني صوت واحد منهم يقول : هناك في أقصى المدرج تقف طائرة البرازيل . .

اذن فهم مودعون . . فمن يكون المسافر يا ترى !

وعادت عيناني تبحثان بينهم عن واحد يحمل سيماء المسافر فوفرت عليّ العناء آلة تصوير يحملها واحد منهم ما لبث أن صوبها إلى رجل بينهم قصير ، يلبس قميصاً شد اليه ربطة عنق يتنازعها عشرون لوناً ، ووضع على رأسه قبعة من القش استحال بياضها إلى صفرة واضحة ، وقف في وسط الشرفة ووجهه إلى الشمس ، ثم وقف إلى جانبه رجل يلبس شروالاً اسود ينحسر عند الركبتين تحت جزمة سوداء لم تعرف الطلاء قط ، ويلف رأسه بكوفية كاكية . . ثم مد المتقبع يده إلى الرجل الذي إلى جانبه كمن يصافحه والتقطت الكاميرا الصورة .

ثم ابتعد ذو الشروال ووقفت مكانه عجوز آثرت أن تلف يدها الناشفة حول عنق الرجل القصير ، ثم تشده اليها كثيراً وهي تجهش باكية وتقول : صوّر يا ابني صوّر . صوراً تأكل قلبي كلما شاهدتها . . وصوّر واحدة واثنتين وثلاثاً ولكنها لم تقنع بضرورة تغيير ( البوز ) قط . .

وانفجرت النساء باكيات ، وارتفعت ايديهن بمناديل تشرب دموعهن ، فقام الرجال ينتهرونهن وشاء واحد أن يلجأ إلى اسلوب غير النهر فقال :

ـ حرام ، البكاء فال أسود . . لا تبكين . . الناس كلهم يسافرون . . الغربة للرجال . .

ولكن النساء لم يكففن ، بل ظلت دموعهن تتدفق في سخاء كلما شاهدن فرحات يعانق واحدة او واحداً منهم ، ثم يلتفت إلى الكاميرا ويقول :

ـ خذها . . تذكار لي مع حنة ، تذكار لي مع بو مسعود ، تذكار لي . .

وانتهت مهمة الكاميرا بعد أن صورت فرحات مع الزمرة جماعة ، ومعهم واحداً واحداً ، فرفع فرحات قبعته ، ثم تناول من يد بو مسعود بطحة صغيرة من العرق مصفوهتهابشراهة وهو يصيح « بصحة الشباب » ولم يقطع على فرحات نشوته غير صوت مكبر الصوت ينادي باللغات الثلاث على المسافرين إلى البرازيل ليتوجهوا إلى الأمن العام ، فالجمرك ، لأجراء المعاملات . .

ـ يلا فرحات شد حيلك . .

والتفت فرحات إلى جماعته وعيناه محمرتان ثم ارتمى على يد العجوز يقبّلها . . لعلها أمه ، لا بد أنها أمه ، فقد نزعت قبعته وراحت تقبّل رأسه ولا تشبع ، ولم تنحها عنها إلا قبضة واحد مد إلى فرحات يداً قوية وقال : « هيه فرحات تقوّى ، يلا يا شباب » وارتفع صوت القبلات ، وعادت المناديل المونة تشرب الدموع .

وتدفق العرق غزيراً من وجه فرحات ويديه ، ولم يتخلص إلا بصعوبة حين جاءه موظف الشركة يلفت نظره إلى ضرورة التعجيل .

وجر الرجل نفسه جراً . كان شارباً إلى درجة الثمـل ، فلا تكاد قدماه تحملانه إلى حيث جلس موظفـوا الأمـن العـام ، وظـل مودّعوه متحلقين في الشرفة ينتظرون ان ينتهي حتى يشيعوه بأنظارهم إلى الطائرة .

وظللتُ في مكاني وقد بدا الانفعال يسري إليّ ، ولكنني آثرت ألا أبيع وقاري في سوق غريبة ، فرحت أحاول التشاغل عن زمرة فرحات باشياء أخري ، ولكنني ما البث أن أستدير فأرى العجـوز تدلي رأسها لتبحث عن ابنها من خلال زجاج القاعة الارضية التي يتجمع فيها المسافرون ، قبل ان تسوقهم المضيفة إلى الطائرة .

ووجدتني أفكر أنا أيضاً في فرحات ، أحاول من ملاحظاتي أن أجعل له من هؤلاء المتجمهرين أماً واخوة وأخوات ، وأولاد أخوة وأخوات ، قد لا تكون هذه السفرة الأولى للبرازيل ما دامت رأس فرحات قد عرفت القبعة ، لعل سفينة مغامرة وسعته مرة مع أحلام حياة في أرض ترابها ذهب وماس على ذمة الروايات فسافر اليهـا ، وظل فيها واحداً من آلاف تفترسهم الوحدة ، فلا يتعزون عنها إلاّ بالكد ، وتمضغ أيامهم ليال بلا عواطف . .

لعلّ فرحات قد تزوج واحدة من هناك ، لا تفهم لماذا يبكي زوجها كلما جمعته وأولاده مائدة عيد ، او سمع عند صديق اسطوانة تخنـق خشخشتهـا صوت أم كلثـوم في « افـديه ان حفـظ الهـوى أو ضيّعه » .

لعل أولاده وأمهم البرازيلية يضحكون كثيراً حين يثور فرحات فيسب الدين ، او يملأ الهواء كلاماً لا يفهمونه ، لعل ولعل . .

وكنت أرفع رأسي إلى أم فرحات ، مسكينة ، لعل حسرة الغربة تفسد عليها طعم الكبة إذا احتواها جرن مرنّ ، وحلاوة دبس العنب حين ترصه في جرة تتحدى بها قحط الشتوية .

التاريخ عندها يبدأ وينتهي بشيء من فرحات ولفرحات .

التينة صارت خيرة يوم سافر المحروس ، والخروف السمين قد ذبح حين كتب لها انه تزوج واحدة من تلك الديار . .

خياله في الدار وتحت الدالية ، ورائحته في كل هبة خير على البيت . .

وكانت ما تزال تبكي حين رفعت اليها عيني ووجدت انها تجهد لتدلي رأسها باحثة عنه بين المسافرين .

ولكنه وفر عليها هذا العناء حين خرج .

كان يحمل في يمينه سلة يبدو انه حريص عليها . . وبيساره منديلاً كبيراً يجفف به عرقه . .

ووقف تحت الشرفة يترك لمودعيه أن يتملوا منه .

ـ فرحات لا تنسانا . . فرحات يا تقبر أمك ، من يوسد امك

قبرهـا إذا ماتـت . . فرحـات بوس المحروسـين . . علّمهـــم على محبتنا . . وتعال معهم في المرة القادمة . .

فرحات فرحات فرحات .

وكان فرحات جامداً لا يدري ما يفعل يتطلع إلى أمه ولا يقول شيئاً . .

وكانت العجوز توشك ان تلقي بنفسها عليه .

ورفعت يدي إلى عيني أمسـح دموعـي من تحـت النظـارات السوداء ، وكنت أغالب نفسي فلا أرفع يدي ملوحة حـين استـدار فرحات يحمل سلته ويرفع قبعته كلما مشى عشر خطوات ، ويلوح بها في حركة يعوزها العنفوان .

ولما ركب الطائرة ووقف على سلّمها ، فرشت القرية عواطفها على المدرج ، والقت أم بقلبها إلى الطائرة . .

واستدرتُ لأمسح عينيَ حين فوجئت بصـديق يربـت كتفـي ويقول :

ـ هه . . هل تستقبلين أحداً . .

قلت :

ـ لا . . بل أودع . . أودع فرحات المسافر إلى البرازيل !!

# مؤهلات

قد يبدو عسيراً على الواحد منا ان يحلل الدوافع التي تنتهى به إلى نتيجة معينة ، فبعضها يأتي نتيجة ايحاء أو نتيجة فرض وعدم اختيار ، أو نتيجة رغبة واستعداد تدفع المرء دفعاً إلى ما يعتقد انه مجاله الطبيعي .

وقد يصعب عليّ ان أحدد أين كان دخولي كلية الطب من هذا كله . كان أبي وعمي وأخوالي الثلاثة يحبون لي أن أغدوا طبيباً ، ولكنني لم اؤمن تماماً بأنني ميسر إلى أن أحب مهنتي إلا بعد أن تعرفت على استاذ أجنبي زائر استدعته الكلية لإلقاء بعض المحاضرات عن الجراحة التجميلية على طلبة الطب ، فأخذت بالنتائج التي عرضها علينا في شكل صور وأفلام ، حول اناس كانوا مشوهين واستطاعت الجراحة بمعجزات المشرط ان تلصق لهم آذاناً أكلتها القنابل ، أو تعدل من أنوفهم البارزة ، أو ذقونهم المنبعجة ، او ترفع وجوههم وأيديهم وبطونهم عند الحاجة .

لقد غدوت بعدها حساساً لكل نشاز يمكن ان يبرز في وجه ما ، فلو جلست في الترام مثلاً ، فقد تكون تسليتي الوحيدة التي تعزيني عن الاكتظاظ الخانق ، أن أضع في مخيلتي نسباً جديدة لوجه غير متناسب أراه أمامي ، أقول لو ان عظمة الانف لم تكن عريضة بهذا الشكل لما بدت العينان متباعدتين صغيرتين ، أو لو ان جلدة الرقبة لم تكن متهدلة لبدا هذا الرجل أصغر عشر سنوات مما يبدو عليه . . أما النساء فقد كانت وجوههن توحي لي بأنه من الممكن لمشرط شيق ان يعيد خلق وجوههن من جديد .

وكان أكثر ما يثير الفضول قلمي الذي يجري في خطوط سريعة على كراس الملاحظات الذي أحمله دائماً ، ليرسم انفاً جديداً ، او فكاً لا يتسم بكل هذه الحدة في الوجه الذي أراه أمامي .

وبهذا الحماس انتهيت من دراستي العامة للطب واقنعت ابي بأن يبعث بي إلى أميركا حيث تخصصت ثلاث سنوات أخرى في الجراحة التجميلية ، وعدت إلى بيروت مستعجلا فتّح عيادتي ، متشوقاً لأول عملية أقوم بها . .

ولكن يبدو ان حماسي كان يتجاوز بكثير حماس أي واحد من اصحاب الانوف الكبيرة ، او الذقون المنبعجة ، أو هؤلاء الذين لا يعبأون كثيراً لو عاجلتهم الشيخوخة بتلك الجيوب التي تتمركز تحت عيونهم . وكان عليّ ان أسعى إلى أي واحد يرتضي أن يكون أول

زبائني ، ومن يدري فقد أنجح في اثارة بعض الدعاية التي تساعدني على ترسيخ قدمي كاختصاصي .

وانتظرت ثلاثة أسابيع دون ان يطرق بابي زائر يشتهي شكلاً جديداً لوجهه ، فوجدت من الاجدى لي أن أسعى أنا لواحد ، ورحت أرصد أي شخص يمكن ان أتقدم اليه بهذا العرض إلى أن رأيته .

من يكون ؟

لعلكم تعرفونه ، فهو ليس أكثر من صبي صغير يحمل يداً شوهاء ، وكان هذا يطالعنا ونحن تلاميذ بيده تلك يحملها نشيطاً من رأس بيروت إلى أطراف الشوارع المتفرعة ، يعرض عاهته على الناس بصوت يتفنن في تلوينه بمسحة حزن وهو يقول :

ـ خمسة قروش يا سيدي أفطر بها ، خمسة قروش لغدائي ، ألا ترى يدي العاجزة ؟

وكان عسيراً علينا ان نعطي دائماً ، فقد كنا لا نملك أكثر من المصروف المقرر الذي نناله من آبائنا . وكنت كلما رأيته تتقاتل على سطح احساساتي مشاعر كثيرة فأصرفه عني متقززاً لمنظر يده مشفقاً عليه وعلى نفسي من هذا الامتحان لانسانيتي .

ولم يكن هذا كل شيء . .

ذات صباح كنت أنتظر سيارة أجرة تحملني إلى العيادة وتخلصني من زخة مطر مفاجئة ، فمرت سيارة استوقفتها وهممت

برفع رجلي اليها وإذا بشيء يجذبني من كمي ، ورأيت الفتى مبللاً كالصوص يطالبني بخمسة قروش ليفطر وقد مدّ إليّ يده الشوهاء فوجدتني أجذبه من كمه وادفعه إلى السيارة فيتكوّم أمام المقعد مفتوح الفم من الذهول ، ثم يقول بلعثمة الخائف :

ـ ماذا تريد بي يا سيدي ؟ انني لم أطلب اليك ان تحملني في السيارة ، لقد رجوتك ان تمنحني خمسة قروش لأفطر . . انني . .

وطمأنت جزعه بليرة كاملة دسستها في يده وأغلقت بها فمه الكبير المفتوح .

قلت وأنا امسك برسغه :

ـ اسمع لقد صرت طبيباً ، وبوسعي ان أساعدك بغير خمسات الافطار والغداء والعشاء .

وتفحصت اليد بإمعان . . كانت ـ وهي اليمنى ـ مكرنشة مشدودة الجلد عند المرفق من الجهة الانسية فسألته :

ـ هل تؤلمك ؟

ـ كانت تؤلمني في السابق ، ولكنني لا أحس بألم الآن .

ـ أهذه نتيجة حرق ؟

ـ أجل . . كنت أجلس قرب أمي وهي تقلي البطاطس فاندلق الزيت الحار عليها واحترقت وظلت طويلاً متورمة . . كان ألمي لا يطاق .

ـ هل عرضك اهلك على الطبيب ؟
ـ نحن لا نذهب للاطباء . كانت أمي تمسحها بماء النيلة .
ـ لا بد انك تألمت كثيراً .
ـ أجل كثيراً ، كان ذلك وانا صغير ، وهي لا تؤلمني الآن . ولكنني لا أستطيع تحريكها كاليد الأخرى .
ـ أتدري أن بوسعي ان أشفي يدك ؟
ورفع إليّ عينين مرتابتين ثم جفل وخبأ يده وراء ظهره .
قلت وأنا أحاول أن أمسك بها .
ـ لا أظن انك تحب ان تظل شحاذاً طيلة عمرك . . ألا تشتهي أن تكون نجاراً ، حداداً ، خياطاً ، أي شيء ؟
ـ لقد كنت أشحذ أيضاً قبل أن تحترق يدي . . وأخواي أيضاً يشحذان .
ـ أولك اخوة ؟
ـ أجل اثنان .
ـ وأب ؟
ـ وأب . أما أمي فقد ماتت ، وتزوج أبي غيرها .
ـ حسناً لم تقل لي إذا كنت توافق على ان اجري لك عملية .
ـ هل تأخذ نقوداً .
ـ كلا انني أبغي مساعدتك فقط .
ـ ورأيته يتطلع كمن يسألني لماذا اختصه من دون الناس بهذا العطف فأردفت :

ـ لقد عرفتك وأنا طالب . . وأحب وقد صرتُ طبيباً ان أساعدك .

وفكر قليلاً ثم سأل :

ـ هل تشفىٰ تماماً ؟

ـ أجل وسيكون بوسعك أن تحركها .

وتطلّع إليّ متأملاً ، ثم أطرق وعاد فرفع رأسه ، وانفرج فمه عن اسنانه البيضاء وهو يقول :

ـ إذا شفيت فسأحطم رأس « خميس » بها ، لقد ضربني مرتين وسلبني قروشي دون ان أستطيع ان أدافع عن نفسي . .

ـ عال ، إذن اتفقنا . .

ورأيته متردداً فرحت استحثه إلى أن قال :

ـ يجب أن أسأل أبي أولاً . .

ـ هل تريدني أن أمضي معك لأقنعه .

ـ لا ، سأسأله بنفسي وأعود اليك . .

وأغريته بليرة أخرى قبل ان ينسل من أمامي بخفة أرنب بري .

ولكن الصبي لم يعد . وانتظرته أسبوعاً دون جدوى ، حاولت ان أعثر عليه في الاماكن التي اعتاد أن يدور فيها فلم أجده ، إلى أن رأيته يشحذ أمام دار للسينما ، فأقبلت أسأله :

ـ لماذا لم أر وجهك . . هل سألت أباك . .
ـ أجل .
ـ وماذا قال ؟
ـ لقد ضربني يا سيدي ، فندمت لأنني حدثته بالأمر .
ـ ولماذا يضربك ؟
ـ لأنني أضيعّ وقتي عبثاً . .
ـ ولكن هل قلت له بأنني سأشفي يدك دون ان تخسر قرشاً واحداً ؟
ـ قلت له ذلك ، وقلت أيضاً بأنك انسان طيب وانك اعطيتني ليرتين .
ـ ايه . .
ـ ـ فأخذ الليرتين ولفهما في حزامه وقال لزوجته :
« لقد أصبح التعس يفكر بجماله » . . أما زوجته فقد قرصت اذني وقالت : « قل للطبيب يا حمار ان يقطعها لك من الكتف ، أو كنت تفلح بأن تكسب قرشاً واحداً من المحسنين لولا يدك هذه ؟ ألا ترى أخويك البليدين لا يجمعان معاً نصف ما تكسبه وحدك في يوم ؟ . .
« لا فائدة يا سيدي ، دعني وشأني ، أو اعطني إذا شئت « ليرة » أتعشى بها ! !

# أطفال الآخرين

حين جمع نفسه ليقوم أحس بأنه غير الشخص الذي دخل . . فبعض الحقائق التي تأتـي جازمـة أحيانـاً تقف كاشـارة في مفتـرق طرق ، وقد وضعته هذه الحقيقة في طريق جديدة وواجهتـه بأشياء كانت في ضمير الغيب ولكنها لما تكشّفت ـ حين سعى إليها ـ القت في قلبه ثقلاً أسود أحس به يشده إلى هوة فاغرة كما يحدث له في الأحلام بعد عشاء ثقيل ، ولكنه كان يستفيق في تلك اللحظة فيفـرك عينيه ويرفع رأسـه عن المخـدة ويبـدأ يعـي موجـودات الغرفـة ، وقليلاً يتخلص من ربقة الثقل . .

ولكن هذه لم تكن حلماً ، كانت حقيقة ولا يمكن ان تكون الحقيقـة في مكان افصـح منهـا في عيادة طبيب . . وطبيب اختصاصي . . اختفت عيناه الخبيرتان وراء نظارة طبية وراح يقول بهدوء وثقة يخـالطـهـمـا غرور علمي :

« أخشى أن أقول إنه لن يكون بوسعـك ان تصبـح ابـاً . . سأجرب معك بعض العلاجات . . يجب ألا نقطع خيط الامل . .

ونرجو ان ننجح فالعلم يصنع المعجزات أحياناً . . »

يصنع المعجزات أحياناً . .

أجل شعرة أمل رفيعة تتعلق بذيول « أحياناً » التي يمكن ان يقال بعدها استطراداً : وفي كثير من الاحيان لا تقع المعجزة . . فالعلم ما يزال اصغر من آلام الانسانية . . وقد يعيش الانسان أوفر سعادة في احتمالات أمل لا يحدد العلم نسبته مما لو كان يعيش مترقباً معجزة علمية . . ولم يقل شيئاً للطبيب . . حمل وصفته وانسل بهدوء ولما نزل السلم أحسّ بها تأكل راحة يده ، فدعكها وألقى بها إلى ريح خفيفة حملتها على جناح ساخر ، ثمْ مشى إلى بيته في طريق احست به ثقيلاً بصورة لم يألفها . .

صوت جرس مرح مجلجل يبلغه في الثامنة من كل صباح ويكون هو قد انتهى من ارتداء ثيابه فيحمل سيجارته ويقف بجوار زوجه على النافذة المطلة على روضة الاطفال يرقبان كيف تتجمع الرؤوس الصغيرة السمراء والشقراء لتنتظم في صفوف مستقيمة يفسد من انتظامها أحياناً طفل مشاكس ، ثم يأخذ كل منها وجهته إلى غرفة وراء معلمة قلبها أكبر من قلب ام . . ويلف زوجته بذراعه ويسبح في عينين غارقتين تلهفاً كمن يقول : « لو يكون هؤلاء كلهم أطفالنا ! » .

لقد باتت الروضة جزءاً من حياتهما . إنه يعلم انه في الساعات التي يغيب فيها عن البيت تكون هي على النافذة تعيش يوم

المدرسة بتفصيلاته وجزئياته ، تعيه حكاية طويلة تقصها على مائدة الغداء . . . وكم من مرة احترقت الطبخة وهي لاهية عنها على النافذة وعذرها انها لم تملك إلاّ ان تشهد حصة الرقص حتى النهاية . . و« لقد ابدعت ( مها ) في الرقصة » . كما « اطرت المعلمة اجتهاد ( عمر ) » . . « وفي العطلة تشاجر ( سامي ) مع مجموعة بنات لأنهن رفضن اشراكه في اللعبة . . وانتصرت البنات وانفردن باللعبة » . . « الارجوحة اليوم كانت من نصيب ( عدلي ) الذي استأثر بها بعناد عجيب » . . « رفض ( سمير ) ان يقوم عن الدراجة وتمرد حتى على وعيد المعلمة » . . دنيا صغيرة تتجسد فيها كل النوازع . . ودنيا حلوة . . فخصوماتها لا تورث أكثر من دموع خفيفة تمحي في ثوان . . وزوجته تعي افراد هذه الدنيا واحداً واحدة . . تعرف اسماءهم ، تناديهم من مكانها وتلقي اليهم بالحلوى . . وتتدخل من مكانها أيضاً لترجو المعلمة ان تصفح عن واحد فلا تحرمه من لعبة لأنه كان مشاغباً وتنتصر للبنات في المباريات ، وتتحيز لهن فتصفق . . .

سألها مرة ماذا تفعلين لو اخلينا هذه الدار ؟؟ قالت :

« اصبح معلمة في الروضة . . » وسكت قليلاً ، ثم قال بغرور : « ولماذا لا ننشيء روضة في بيتنا . . هل تكفيكِ دزينة ؟ . . » وتقول محاولة ان تتغلب على خجلها : « الدزينة صف واحد . . ما رأيك في أن تتزوج أربعة تجعل منهن اربع معلمات لأربعة صفوف ؟ » .

ويضحكان . . كانا سعيدين . . بعمق وبساطة . . فكل ما حولهما يوحي بقصة سعيدة . . في حواشيها أطفال كثيرون كثيرون . .

هذه حياته طيلة ثلاثة أعوام . .

ثلاثة أعوام تخرجت خلالها من الروضة أفواج ، والتحقت بها أفواج . . وابتدأت اسنان الحليب تسقط من فم جمال ومي ومازن . .

وفي ثلاثة أعوام تستطيع أية نكتة ان تبهت ، وتستطيع حكاية الدزينة ان تصبح حساسة إذا لم تهل طلائعها . .

لم تحمل زوجته . .

ومع ذلك فالامر لم يلبس ثوب المشكلة لولا ان في حياة الاسرة الشرقية ـ اية اسرة ـ ابعاداً غير بعدي الزوج والزوجة . .

كانت هناك أمه وامها . . عمته ، اربع من شقيقاته لا يراهن إلا منتفخات البطون . .

اولئك جميعاً يرفضن ان تظل النكتة العوبة لفظية .

ولد لكل عام زواج . . أليس لهذا يتزوج الناس ؟ . . ألم يكن هو واحدا من تسعة أشقاء وشقيقات ؟ مسؤ ولية تقصم الظهور وكان أبوه راضياً تقوم « نشكر الله » على شفتيه وتقعد عشر مرات في اليوم . ولا يكاد يجمعهم واياه مجلس حتى يقول : « فزنا من زينة الحياة الدنيا بأحد شطريها . . هذا الذي نقدر عليه . . اليس كذلك

يا أم سعيد ؟ . . » ويضحك ثم يسحب نفساً طويلاً من نارجيلته معتزاً بجيشه الصغير . .

لقد اختلت به امه خلوة خاطفة قبل شهر فقالت :

ـ مالك ساكت ؟ زوجتك لم تحمل ونساؤنا امهات يا بني ، خذها للطبيب فلا خير في عاقر . . أو دع أمها تأخذها إذا كنت تستحي . . ولا يدري كيف أسكت أمه في ذلك اليوم ، كيف ردها بخشونة بكلام مختصراً :

« هذا شأني أنا . . » ولكن أمه تصرّ على انه شأنها أولاً ، لذا عرفت كيف تحاصر زوجته وتلقي باهانتها على شكل نصيحة . . . فقد جاءته هذه تقول :

« قل لامك بأنني قصدت الطبيب . . وان نتيجة الفحص أكدت صلاحيتي للأمومة . . »

قالتها وانسحبت . . كأنها قنعت بأنها غسلت عنها الاهانة . . عار العقم . . وكانت عيناها منفعلتين . . وصوتها يهتز . . انه في العادة يحب ضعفها ، فهو اعتراف ضمني بتفوق رجولته ولكنه أحس في دمعتيها طعم التحدي . . تحدي انسان يستطيع ان يكون لئيماً لو أهين . . ولأول مرة لمس منها الاهانة . . وشعر بأن المسؤوليات تمتحنه . . وخاف ان يكون أصغر من التجربة . .

كانت روحه ثقيلة ، أثقل من دعساته على الاسفلت الساخن في ظهيرة صيف . .

كان السر الذي حمله من عيادة الطبيب يعلن عن ذاته بشكل يفضح عقمه ويبدو لكل من هؤلاء الرجال الذين يهرولون إلى بيوتهم بالخبز أو الخيار أو الحلوى ، هذا واحد يموت شوقاً إلى طفل من اطفالكم الذين يملأون حياتكم صخباً وضجيجاً وافلاساً ، ويملأونها سعادة تسع الصخب والضجيج والافلاس ويظل فيها متسع .

هل صحيح انه يحب الاطفال إلى هذه الدرجة ؟ . .

الواقع انه لم يمتحن أحساسه تماماً . . لم يسأل نفسه هل أكون تعيساً لو لم أصبح ابا ؟ . .

فالاجابة بصدق على هذا السؤال هي التي تحدد موقفه العاطفي من الامر . . فلو سأل نفسه هل تحب الاطفال لأجاب نعم ، شيء بديهي مثل جوابك على « هل تحب الخبز ؟ » . . ان هذه المخلوقات اللطيفة تبهجه تماماً ، اوليست مصدر متعة واثارة دائمة في بيته المطل على الروضة ؟ . . ولكنه لم يسبق ان وضع سؤاله بالصيغة السالفة التي تجبهه باحساس محدد . ان الناس يتزوجون لينسلوا ، هذه هي وظيفتهم وليس أدعى لفخره من أن ينادى « بأبي ابراهيم » وبلادته كما يبدو لم تشكل له عقدة ، فالناس لا يمسكون باصبعه واضعينه عليها ، وهم لا يسألونه « لماذا أنت بليد » . . ولكنهم يجدون من حق فضولهم الاجتماعي ان يسألوا « هل رزقت أطفالاً » ، وهم يرفضون ان يسمعوا منه غير النعم ؟ فهي الضمانة التي تقنع

الناس بأنه واحد مثلهم . وهذا الموقف الجديد سيزجه في تعقيدات لم يكن يحس بها . . وقد تستسلم زوجته وهو يلقي اليها بنتيجة فحص الطبيب . . وقد تهون عليه فتقول هذا « قدرنا » . . ولكن استسلامها مهما نجح في ان يلبس طابعاً انصياعياً فهو حتماً قشرة خارجية لأحساسات داخلية محتدمة . .

هي ام . . تحب الصغار على أوسع ما يستطيع قلب انثى ، انها أكثر من مرة لو رزقنا اطفالاً فلن نجهد رأسينا بحثاً عن اسم طريف ، سنطلب سجل الروضة ونختار ؟

الروضة ! وشعر بأن هذه أيضاً عامل يزيده تعقيداً ، فمهما كابر فهو حتماً سيختنق بالغصة كلما رآها تطل من النافذة تنادي هذا وتداعب ذاك وتحب الجميع . . وقد يشقى أكثر لو هي لمست شعوره الجديد فمنعت نفسها عن اغداق هذا الحب على جيرانها الصغار . بأي حق يفرض عليها هذا التأزم ؟ انه هو نفسه لا يستطيع ان يمتنع عن محبة صغير ، فهل سيخضع تصرفاته لو ابتسم لواحد ، لو مسح على رأس الآخر ، لو حمل أبناء اخوته ، لو اشترى لهم لعباً كما يفعل ، لتأويلات لا تعرف كيف تتعاطف إلاّ بشكل فج يجرح أكثر مما يؤاسي ؟؟ . . الرثاء . .

إنه يرفضه منها ، من أهله ، ومن الناس جميعاً . . ومع ذلك فلن تحيد نظرة الجميع اليه عن هذه الزاوية . . هو الذي عجز ان يمنح زوجته ابناً . . افضل منه أي كلب يستولد انثاه اربعة جراء مرة

واحدة !!

وسره هذا الذي كشفه الطبيب سيكون في متناول اية واحدة تمد فضولها إلى عالمها فتنبري زوجته لتدفع عنها سبة العاقر مقسمة انها كالأخريات ، كأخواته وأخواتها ، كصديقاتها ؛ ككل الامهات اللواتي يأتي أولادهن إلى الروضة . . واللواتي يختصرن الوجود في أمل يعلق بالرؤوس الشقراء والسمراء . .

كانت المجلة التي في يده حيلة يدفع بها احساسه الغائم الكئيب وهو ملقى على فراشه بعد غداء لم يصب منه إلا ما يرد سؤال زوجته « مالك لا تأكل » . . وكان جرس الروضة يقرع معلناً انتهاء يوم مدرسي وزوجته كالعادة مدلاة الرأس . . لقد هم بأن يحكي لها بعد انتهاء الطعام ولكنه قال في نفسه ماذا يضيرني لو تركتها أسابيع تعيش في وهمها الجميل . . وتجلد محاولاً ان يصغي لكلامها ، ولكنه لم يجد القدرة في نفسه ليضحك لاخبار أصدقائها الصغار . . ولقصة خالد الذي يصرّ ان يحمل قطته إلى الروضة ، ويصر على ان يجعلها تجلس قسراً إلى الارجوحة ليقوم بهزها على هواه حتى إذا قفزت هاربة سعى اليها وأعادها بالقوة إلى الارجوحة . وحين كانت المجلة في يده كانت عيناه تزوغان بين السطور . . وفكر ، في أن مجاورته للروضة لن تريحه من عذاب تفكيره . . فقد باتت قطاعاً تسرح عواطف زوجه فيه طولاً وعرضاً . . هذه النافذة ستعذبه كثيراً . . لقد بلغه منها صوت جرس الدخول والانصراف في مئات الأيام ولكنه ما ضاق

بالدوي ضيقه الساعة . . وفي اذنيه اختلط صوت الجرس بأصوات السيارات التي أقبلت لتحمل الصغار . . فهرعوا اليها صائحين صاخبين وارتفاع صوت المعلمات يوصيهم بالهدوء . . ولعلع صوت زوجته « مع السلامة مها ، مع السلامة سامي » . . وكانت تلتفت اليه بين لحظة وأخرى لتقول : « قم وانظر خالد ينوء بحمل قطته وحقيبته معاً » . . وكان الدوي يدور في رأسه يدق على أعصابه دقاً . . ولما اسرفت في الحاحها فكر في ان يقوم ، لا ليتفرج بل ليغلق النافذة . . ليقول لها بان تعقل قليلاً وتكف عن هذه الصبيانيات . . يا إلهي ألم تفهم هذه الحمقاء بعد ؟

ولما أقبلت تشده من يده قام بعصبية وضيق ومدّ يده الى مصراع النافذة يهم باغلاقه ، ولكن يداً صغيرة لوحت له من الاسفل ثم ارتفعت أكثر من يد ، لقد كانوا أصدقاءه لشهور طويلة ولم يستطع ان يجفو هذه الأيدي الممدودة فابتسم ، واستعرض في نظره مجموعات الرؤوس الصغيرة فتنهد . . إن هؤلاء يمنحونه شيئاً ، يعطونه الفرصة لأن يحب ، وشهادة الطبيب فيه لا يمكن ان تبدل حقيقة احساسه فيما بينه وبين نفسه على الأقل . . ولكن لماذا يظلم الطبيب ؟ . . إن الاطباء يتركون شيئاً للعلاج وشيئا للامل ليظل للحياة ما تستحق ان تعاش من أجله . . فلماذا صدهما معاً ؟ . . طرد الأمل ومزق الوصفة ؟ واختار ان يتقبل النتيجة كما يتقبلها أي كافر بعدل الحياة ؟

وقليلاً قليلاً سكنت الاصوات ، وخلت الساحة من الرؤوس السمراء والشقراء . . ولكن صاحبنا لم يرتد عن النافـذة . . ولـم يغلقها . بل وقف يستعرض أراجيحها ودراجاتها وأحصنتها الخشبية طويلاً . . ولما تملى منها بعينين حالمتين اختلجـت شفتـاه بكلمـة لم تسمع . . من يدري . . .

وابتعد عن النافذة . . .

وخلاّها مفتوحة للصغار . . والامل . .

# أريد مَاءً . . .

الخطوات الموقعة الخفيفة نفسها ، وحفيف الثوب الاسود الفضفاض يُسمع ، فتُسبل العيون المتراقصة في كل اتجاه ، وتتمدد الاجساد بهدوء تمثيلي ، وتمعن بعض الخبيثات في اللعب فيطلقن شخيراً لا ينطلي على « الاخت » مارتا » فتسكته بهز الاسرّة ، ويسود الهدوء ولا يسمع إلا صوت الصمت ، وصوت تقلبّها على المخدة ، إلى هذه الجهة مرة وإلى تلك مرات . وكلما مال رأسها المتعب يميناً ضغطت المخدة وريقات الرسالة فتسمع خشخشة جهمة وتحس بوخز السطور في رأسها . . وتشحب كلمات الصلاة على شفتيها وتّمحي مع خطّي دموع يشربهما اللحاف الذي يعرف السر ، فقد باحت به صلواتها وأدعيتها ودوران حبات مسبحتها الطويلة السوداء بين الابهام والسبّابة ، كأنها في سباق مع الخطيئة التي تدفع ثمنها هذا القلق الذي استنفر ضميرها فأكل أمن طفولتها التي ودعتها قبل شهرين وقاضاها ثمناً أكبر من عمرها ، ثمناً تتحدث عنه الرسالة التي ترفض المساومة عن شيء ، شيء صغير مما اعتادت ان تدفعه ثمناً

لخطيئاتها . . محاولةُ غش مثلاً ، او تمرد على قانون . . تجُازي عليهما بضياع سلسلة او زلة قدم على أرض خشنة . وهي تدرك ان لا بد من ثمن لكل شيء . وقد ظلت اسبوعها الاخير تنتظر حكماً على خطيئة ، فاستنجدت بكل تمثال ينتصب شاحباً في زاوية من زوايا الكنيسة فما طرفت لواحد منها عين ، ولا شفعت لها عشر شمعات ذابت اتضاعاً أمامها ، لقد تخلوْا عنها جميعاً فأي رحمة تنتظر بشراً يكذب على الله ؟؟

تعساً لم تخُلَقُ أنثى . . أما من سبيل غير الطوفان دمغة للجنس . . هذا الطوفان الأحمر الذي قالت الأخت مارتا ان عليها ان تتوقعه مرة كل ثلاثة أسابيع ، فتبدو منه كل هذا الالم في بطنها وظهرها وركبيتها ، وتحس نفسها تميد بالغثيان ، وتكاد لا تعرف كيف تجلس أو تنام فيفضحها أثر صغير يعطي رفياتها مجالاً لتعليقات كثيرة خبيثة ، كتلك التي سمعتها منهن حين واجهت التجربة للمرة الاولى في حياتها قبل شهرين ، إذ فاجأتها دون أن تدرك كيف تحتاط له ، وكيف تتلقاه ، بل ولم تدر أن ثمة علاقة بينها وبين هذا الألم الذي أقعدها عن المشاركة في لعبة حتى فاجأتها سلوى ـ وسلوى السليطة اللسان من دون الرفيقات جميعاً ـ إذ أمسكت بذيل ثوبها من الوراء وقالت :

ـ أظن ان من الضروري ان تَرَيْ الأخت مارتا لتقول لكِ من انكِ لم تعودي صغيرة .

ثم أطلقت ضحكة دفعت بالدم إلى وجهها فانسحبت لا تعلم كيف تمشي لتكتشف هذا الشيء المشبن في أقرب حمّام من الملعب ، وتخرج بعد أن ظلت قابعة نصف ساعة لا تدري ماذا تفعل ، على طرقات سلوى وزمرتها على الباب وقد أثار فضولهن الاكتشاف الفذ .

لقد ودّت لو تنشقّ الأرض وتبتلعها فذلك أهون على قلبها مما سمعت « دعنها وشأنها يا بنات . . لقد اصبحت امرأة ! . .

ما أكثر ما أرعبها ذلك الخاطر الذي كانت تستبطئه بالملابس الفضفاضة تخفي بها شيئاً نبت في صدرها . . فلا تصرح به لأمها حين ذهبت في العطلة ، ليتها صارحتها فقد يكون في ذلك مناسبة لاثارة هذا الأمر الذي فوجئت به مرة واحدة ، وهي لا تدري متى يبدأ او ينتهي ولا كيف تستعد له في كل مرة .

كانت دائماً تتساءل كيف لا تخجل كبيرات البنات من صدورهن ، وكيف لا يتورعن عن ابرازها بملابس تضيق عند الوسط كثيراً ، فأكثر ما تكره أن يقال انها غدت « كبيرة » أو « عروساً » أو أي تسمية تروق للنسوان من صديقات أمها اللواتي يملن كلما رأينها في عطلة سائلات بصوت خفيض سؤالاً لا تسمعه ولكنها تسمع جواباً واحداً له من أمها : « لا ، بعد » . أما الآن فستقول : « نعم » وستحرجها بمثل هذا الكلام .

ولكن هذه هي الحقيقة مهما اجتهدت في اخفائها ، وكان

احسن لها ان تعوّد نفسها عليها . . ان تتقبلها مهما لاقت من عنت أو تجريح فلا تحتج بها حتى على الله ولا تدفع لها هذا الثمن الباهظ ، فسلسلةٌ تضيح أو ركبة تجُرح من سقطة أهون بكثير من أن يمرض « فريد » وحيد العائلة بين بنات ثلاث . فهي تعلم كم يعني فريد لابيها وأمها وكل عانس أو عجوز في الاسرة ، وقبل فريد لم تدرك تماماً ما معنى ان ترزق اسرة بصبي حتى رأت خروفاً ينحر على العتبة حين فتحت عمتها باب الغرفة التي تلد فيها أمها وأطلقت زغردة ، فارتسمت ضحكة على وجه جدتها لم يتسع لها فمها الأشدق ، وراحت تمد يدها للأرض ثم تضعها على رأسها شاكرة . .

واصطخب البيت بالمهنئات واستوت قدور ( المغلي ) على النار ، حتى انها حارت وهي تتقدم من أمها مهنئة تحت دفعات عمتها ان تحب او تكره كتلة اللحم الزرقاء التي صارت ( فريداً ) فيما بعد .

وهذا فريد يمرض كما تقول الرسالة . .

وسيتساءل الكل ، أبوها وأمها والطبيب عن السبب ، ولكنها وحدها تعرفه ، وحدها تدري ان لا بدّ من كفّارة كبرى لخطيئتها . . « فهو » لا يفتقد ذنوب الآباء في الأبناء فقد كما تقول الأخت في حصة الديانة . . بل يفتقد ذنوب الاخوة في الاخوة . . فليس قليلاً ان تحتال على الله . . ولو بحسن نية حين وافاها الطوفان في المرة الثانية . لا لم تكن حيلة . . لا يمكن ان تكون . . لقد خجلت من ان تُبدي عذراً يشفع لها في عدم تناول القربان . . ولم تكن تعلم ان

ثمة علاقة بين هذا الشيء وبين سرّ من أسرار الكنيسة لولا الذي سمعته من صديقة لها حذرتها من أن تفعل ذلك إلاّ إذا كانت نظيفة طاهرة ، فمجرد الاقتراب من الهيكل مع حالتها تلك خطيئة كبرى في عرف مذهبها . . فأحست بالعذاب . من مثل هذا التصريح إذ سيكون لسلوى مناسبة متجددة تسخر بها منها وتعيرها بأنها امرأة . . تصوروا امرأة . . ورفضت ان تعتذر به . . وركعت طويلاً أمام هذا السرير وظلت لليلات ثلاث لا تكاد تعرف النوم وهي ترجو الله ( ان تنتهي ) قبل يوم الأحد ، وقد ظنت ان السماء ارحم من تجريح سلوى حين تبينت في صباح الأحد انها مستطيعة ان تدنو من السر الالهي ، فأجابت بثبات على سؤال صديقتها الكبيرة « اجل . أستطيع » ، ولم تكن تعتقد انها تكذب ، بل أحست في الكنيسة ان حملاً قد انزاح عن كتفيها ولكنها تبنت وهمها بعد ساعتين فصعقت . . تيبست أطرافها ، وجفّ حلقها ، وأحسّتْ بالنار تندلع في عينيها . . كيف تفعل ذلك . . تكذب حتى على الله ، فأي عقاب وأي عذاب تستحقهما . . .

اوليس عذاباً ان يأكل رأسها هذا الطنين « سيموت أخوك . . يموت . . يموت ؟ يموت ، وتظلين بمنجاة أنتِ التي تكذبين على الله . . فتلبس أمكِ السواد ، ويبكي أبوكِ دماً أحمر وهو يشيّع نعشاً وردياً صغيراً تغطيه الورود من كل لون ، وتظل الاسرة بلا صبي والأخوات الحزينات بلا أخ » .

وتستنفر دموعها صورة النعش ، إذا كان لا بدّ من موت فليكن نعشاً أكبر تتمدّد هي فيه ويرفع محمولاً بلا غطـاء ، وتشيعـه تراتيل التلميذات لابسات الياقات البيضاء ، فهل تموت لو ألقت بنفسها من النافذة ؟ ستنتظر الصباح وتفعل ذلك ، ولكن لماذا لا تفعله الآن . . أتخشى ازعاج النائمات ؟ وماذا يعنيها من أمرهن بعد ان تمـوت . . أترى سلوى النائمة كبقرة حمقاء انها سبب في ذلك كله ، ومع ذلك تنام ويتصاعد شخيرها الكريه . . ستشمـت حتـى بمنظـر جسدهـا الممزق . . لا لن تدع لها ان تتملى منها رأساً بلا جسم او جسماً بلا قدم . . ستموت بالسم ، بأي شيء يصلح ان يكون سماً . لو كانت في البيت لابتلعت حبوب الفئرات الحمراء التي ينثرهـا أبوهـا على أرضية غرفة الخزين . . أما هنا فكيف تموت ؟ حتى الموت يبدو عزيزاً في هذا المكان . . آه بالاسبرو . . فهناك من يقتلون أنفسهم به وفي خزانتها علبة كاملة لا تنقص إلا حبة واحدة تناولتها لتسكن من آلام بطنها ، والخزانة مفتوحة ، ستقوم الآن فلو أرجأت موتها لما وجدت المجال . . ولكن ماذا لو كانت الخزانة مغلقة ، ألا يوقظ صرير المفتاح اية واحـدة من النـائمات . . ولكنهـا مفتوحـة . . كل شيء ممهـد أمامها ، ولكن تباً لهؤلاء البقرات أما من واحدة تشعر بهـا ، تحس بأنها ستموت دون ان يقول لها أحد « لا » ؟ ودون ان تستيقظ منى أو . . او حتى سلوى . .

هي ذي العلبة . . فاذا ابتلعتها إلى آخـر حبـة فستمـوت ،

ستكون في الصباح جثة ممددة على أرضية الغرفة وستصعق رفيقاتها لمنظرها وتستدعي المديرة أمها وأباها . مصيبة أخرى للعائلة . . كأن مرض فريد لا يكفيها ، ولكنها تفعل ذلك ليبقى لها فريد ، فموت بنت ليس كموت صبي . .

أصابعها ترتجف وأطرافها يسري فيها الثلج . . تريد ماء . . تبتلع به الحبات . كيف تبتلعها ناشفة . . ستقف في زورها فلا تنزل ولو نزلت واحدة فكيف تبتلع الثانية والثالثة والعاشرة . . أين الماء ؟ أليس في الغرفة ابريق ، كوب ؟ أي سائل تشرب به موتها ، أي سائل تشتري به فريد ؟؟

وجرت نفسها الى السرير تدفن رأسها تحت اللحاف وتحاول اسكات خشخشة الاوراق كلما مال رأسها إلى اليمين بنشيج مخنوق تخالطه كلمتان ظامئتان . . اريد ماء ، أريد ماء .

# مِن بعيد

لم يكن الروب طويلاً ، كما لم يكن متعباً بشكل يعيقه عن احتمال نصف ساعة أخرى ؟ وما كانت الطاقية تضايقه ابداً . بالعكس لقد حلم بها كثيراً ، وقد لبسها قبل أيام وتأمل نفسه طويلاً في المرآة ، قبل ان يمضي إلى المصور ، ويضعها على رأسه ثانية بكل اعتزاز ، ويقف أمام الكاميرا بوقار مبالغ فيه ، لتلتقط له صور التخرج التذكارية . صوراً ترتفع على جدران بيت أبيه وعمه وأخواله ، وتؤكد لكل منهم شخصيته التي صار اليها . وفكر في أن يعطيها واحدة ولكنه تردّد في ان يحسم الأمر فيما بينه وبين نفسه ؟ إلا أنه احس وهو واقف في الصف الطويل ينتظر ان ينهي متخرجو كليات الجامعة مراسيم تخرجهم ، احس ان شيئاً يخترق ظهره ، يفتت عظامه ، ويحسسه بأنه انسان لا يملأ الروب الذي يلبسه ، ولا يصمد لثقل الطاقية ذات الشرابة المدلاة ، شيء اصغر من اللقب العلمي .

لم يكن قد لمحها بعد ولكنه احس بعينيها من خلفه ،

وبهاجس في نفسه يقول انها هنا ، وانها ـ ولا يدري كيف ـ قد اخترقت هذه الاسوار ، هذه الدنيا التي لم تحلم قط بأن تجد في يوم ما من يحدثها عنها ، وانها دافعت هذه الكتلة البشرية ووجدت لنفسها مكاناً تجلس فيه ، وتهزأ من صغارته .

وتحلب العرق من جبينه وراحت حباته تسيل على عينيه ، وتسحل على ظهره وتحت أبطيه ، وتتفصد حتى من أطراف أصابع قدميه .

وأحس بالغضب ، غضب لا مبرر له فهو لا يملك ان يمنعها ، وهي لم تلجأ اليه ليسهل لها هذا الحضور ، ومع ذلك فقد هزه بعنف إذ واجهه بملامح فضيحة خشي ان تكشف عن نفسها النقاب ، ولعلها كشفت وانتهى الامر فاندلقت من فم امرأة مصبوغة تتلفت فيما حولها ، وتتجاهل الانظار التي تعلقت بها بازدراء او ترفع او استهجان ، لتقول للناس ، كل الناس الذين أقبلوا ليصفقوا في مهرجان التخرج : « انظروا الى ذلك الفتى الطويل ، الفتى المتخاذل تحت وطأة الروب ، لقد جعلت نقودي المدنسة منه طبيباً ، ومع ذلك فقد ضنَّ علي بدعوة إلا انني أقبلت بالرغم عنه لأمزق زهوه بتصفيقي ،- لأذكره بأنه صنيعة امرأة من المواخير » .

لقد أحس في تلك اللحظة ان شيئاً يعانق الغضب الذي في نفسه ، ويوشحه باحاسيس الكره الصفراء . لو كان ابوه كسائر الآباء الذين أقبلوا ليمارسوا أحاسيس الزهو ، يقطفونها عن

المنصات ، ويلتمسونها من هذه الشهادات المكومة أمام العميد والتي تنتظرها هذه الصفوف الوقورة السوداء من ابنائهم الاطباء او المهندسين او الصيادلة وغيرهم ، لوفر عليه ان يحس في الساعة التي حلم بها عمراً ، انه خرج إلى الحياة بشهادة يلوثها رذاذ التبجح .

وعندما تحرك رفيقه الذي إلى يمينه ولكزه لكزة خفيفة قائلاً له : « انها هنا » ، غامت الدنيا في عينيه ، وتمثل له ان هذا التصفيق الحاد الذي انبعث للتلميذة المهندسة برتبة شرف ليس لها ، بل للقصة الطريفة التي تطوعت ( هذه ) بقصها عليهم .

قصته . .

قد يريحه ان يعرف الناس قصته ما دامت قد تمردت على الجدرات التي ترطبت بالإثم ، وغدت حقاً مفتوحاً لكل ذي اذنين . فلا بأس من ان يسردها ، وسيكون ماهراً جداً في تحشيد المبررات التي جعلت منه ضحية ؟ هذه المبررات التي تقوم على منطق « لم يكن لي خيار » . اجل لم يكن لي خيار هي أنسب عبارة يستند اليها قبل أن يبدأ قصته .

وقصته لم تكن في البدء مثيرة .

قبل خمسة أعوام ورد على هذه المدينة فتى غريباً يحمل شهادة الثانوية من بلدة صغيرة في قطاع غزة ، وكل حلمه أن يتعلم شيئاً يكسبه حيثية ما ، ويفتح أمامه مستقبلاً أكبر من وظيفة معلم في مدرسة هزيلة من مدارس ( الوكالة ) .

وكان يعلم ان عليه ان يدرس بقسوة فهو لا ينسى انه لولا مساهمة ( الوكالة ) في قسم من المصروفات لما طمح بأكثر من وظيفة معلم او كاتب في مكتب خاله المحامي مثلاً .

أوه . . قصته طويلة ومتعبة ، ولا بدّ من الاختصار فقد يدعى بعد قليل الى المنصة . وفي بيروت ظل سنوات يعيش كفأر ساذج لا يعلم من أمر هذه الدنيا المعلبة إلاّ انه تلميذ لا يحق له ان يتهاون إذا درس ، ولا أن يشبع إذا أكل . وان يحرم نفسه من وجبة عشاء إذا خطر له أن يشهد فلماً .

هكذا ظل طيلة ثلاث سنوات .

وبعدها تعلم كثيراً ، تعلّم ان المدينة تمتد لأبعد من البوابة الحديدية ، وإنها على صغير رقعتها اوسع من هذا البحر الأزرق المنبسط على مرمى النظر من أية زاوية من زوايا الجامعة .

أجل تعلم كثيراً وما من ضرورة للتفصيلات فما يعني الناس من القصة إلا أن يخلص إلى الطريقة التي تعرف بها عليها . ولقد عرفه بها زميل له ، فالمختبرون من الطلبة يحبون ان تكون لهم دالة على رفاقهم ، فهذا يظهرهم بمظهر المتمرسين بالدنيا ، وانهم يعرفون منها أكثر مما يسمح به الكتاب .

حين واجهها لأول مرة كان خلو الذهن مما يمكن ان يفعله الناس في مكان كهذا ؟ وقد أثارت حيرته اشفاقها بشكل جعلها

تعطف عليه عطفاً ليس من مستلزمات المهنة . ولما خرج أعادت له النقود واستحلفته ان يعود اليها . لماذا ؟ لا يدري لعلها قد استراحت إلى الاحترام الزائد الذي أبداه لها والذي ضحك منه فيما بعد .

وعاد ، مرة ومرة ومرات .

وصارا صديقين .

لقد رأت فيه انساناً يحكي لها عن دنيا لا تحلم بها ، ويرى فيها شيئاً يختلف عن رفيقاتها فيحمل لهـا الكتـب والمجـلات ، ولعلهـا استمرأت ان تبدو مثقفـة أمـام رفيقاتهـا وأن تتصرف بمستـوى هذه الثقافة .

كانت تنتظره دائما على غـير ما تنتظـر الزبائـن ، فمجالسته مناسبة تشعر فيها بأنها تستطيع ان تتعامل بغير النزوات الفجة .

لقد شعرت بأنها باتت تحبه .

كانت تستقبله بوجه مغسول وبمظهر يخلو من الأصباغ التـي تضج بها التاعسات . وكانت تجتهد ان تقـرأ ـ على ضعف لغتهـا ـ الروايات التي يحملها لها لتؤكد له انها تهتم بهداياه هذه المتواضعة .

إنـه يفصـل أكثـر ممـا يحتمـل الوقـت الضيق ، لقـد انتهـى المهندسون من استلام شهاداتهم وها قد وقف عميد كليته ليتلو القسم الطبي .

ذات يوم فوجىء بشيء لم يكن في خاطره ، لقد مرض أبـوه

بالربو وانقطع عن ملازمة دكانه وهو يطلب اليه ان يعود ليستلم التجارة المتواضعة . وبعدها يعود إلى الجامعة إذا ما عادت الظروف مواتية .

عجيب هل جن ابوه فيطلب اليه مثل هذا الطلب ولم يبق على تخرجه سوى عام وبعض عام ؟ ورفض ان يذهب فتوعده أبوه بقطع المساعدة . وقطعها ولم يتبق له إلا المساعدة التي يتلقاها من ( الوكالة ) .

كان عليه ان يوفر مصروفات الدراسة بأي ثمن ولم يكن يريد أكثر من هذا . لقد دأب على الاكل في الكافيتيريا ولن يضيره ان يلغي من برنامجه كل ما يمكن الاستغناء عنه . وسيستغني عن السجائر وعن الوجبة او الوجبتين الاسبوعيتين اللتين يتناولهما في المطاعم الخارجية من باب التغيير .

ولم يدر ما يفعل . لقد زارها في المساء وحدثها بالأمر بشكل عابر ، بدافع حاجته إلى من يستمع له ويقدم لوناً من المشاركة سواء بالعاطفة او الكلام ، لم يكن ينشد أكثر ولم يتوقع اكثر ، وكان خليقاً به ان يرفض لو عرضت هي شيئاً ، ما أفظع هذا الخاطر ، ان تنفق عليه مومس ولكنها عرضت المساعدة وعرضتها بالحاح وبتوسل وبرجاء . أكان ذلك بدافع حرصُها على مستقبله او خوفها من ان تفقد صديقها المثقف او احساسها بأنها بهذا العمل تكتسب قيمة اجتماعية ؟ إنه لا يدري ؟ ولقد تعب في تعليل الأمر ولكنه متأكد من

انها عرضته بصدق . ورفض . وألحت ؟ فرفض ؟ والحفت في ان يعتبره ديناً تسجله عليه بالليرة والقرش . سألته « ترى لو جاء العرض من زميل من صديق ؟ من قريب ؟ أكان يرفض ؟ » وسكت . وحللت سكوته بهذا التفسير « اذن أنت تزدري دنس نقودي ؟ كما تزدريني ؟ أعرف ذلك فأنت لا تعارض من حيث المبدأ ولكنك ترفض ان يكون القرض مني ؟ أليس كذلك ؟ » وعتبت بألم .

ولا يدري هل لان أمام رجائها ؟ وهل صحيح ان عزمه على السداد هو الشيء الوحيد الذي جعله يقبل فيما بعد أم ان الظروف قد وضعته موضع من لا خيار له ؟ . لا يدري إلا أنه قبل .

إن كل ليرة قبضها مسجلة في دفتر صغير يحمله ، وسيرده لها قرشاً قرشاً ؟ فلتطمئن انه لا يأكل من جسد انثى ضعيفة ؟ واحدة من المواخير ؟ ولكنها انسانة أكثر انسانية من أي واحد من هؤلاء الحضور الذين حرصوا على ان يتركوا كرسياً فارغاً بينهم وبينها ، ولكنهم على استعداد لافتراسها في أية خلوة تسنح .

ألا تراه يفعل فعلهم الآن ؟

لماذا ضنَّ عليها بالبطاقة ؟

أليس هذا لوناً من ترك مقعد خال يفصل بينه وبينها ، ويقنع جانبه الاجتماعي انه من عالم ، وهي من آخر ؟

أليس هذا بدافع تحرجه أمام الرفاق إذا عرفوا بشكل او بآخر بأنها ذات دالة عليه ؟ لقد كان عازماً ان يتسلل بعد ان ينتهي الحفل

فيقصدها ، ويترك لها ان تقبله مهنئة ، وقد يرد قبلتها باثنتين . ثم يبرز لها دفتره الصغير ويقول لقد انفقت عليّ كذا ، وتأكدي من انني سأسدد المبلغ في خلال ستة شهور على دفعات .

ألم يكن ينوي ان يقول لها كلاماً مثقلاً بالعرفان بالجميل بل ألم يفكر ان يمسح ذلها بعبارة « انت أشرف من رأيت »

أجل كان خليقاً به ان يفعل هذا وأكثر ؟ أما أن تأتي هي ، أما ان تدع رفاقه يتغامزون ؟ اما ان يتحمل لكزات زميله ويلحظ انتقال اللكزات عبر الصف ، أما ان تفترسه هذه العيون وتتهمه بما لا يطيق ، فشيء لا يمكن ان يصبر عليه .

إن بعضاً من رفاقه يعلمون بأن ثمة علاقة بينهما ولكن ما من أحد يدري بأن علاقته تختلف عن مستوى بائعة وشار ، ككل اللواتي يبعن ، وكل الذين يشترون .

لماذا أتت هذه المجنونة ؟ ألا تدري بأن هذا المكان هو آخر ما يجدر بها ان تتطاول اليه ؟ كم يكرهها ؟ كم يكره ظروفه التي الجأته اليها . ما كان أخسه إذ قبل ، وما كان أخسها إذ جاءت تدل عليه بصنيعها على ملأ .

وتحلب العرق من جبينه أكثر فأكثر ، وأحس بأطرافه تتصلب من البرودة .

وتحول صفه الى الجهة اليسرى من المنصة . يا إلهي دقائق



ألم يعد بعد . . ؟

وتململت في الفراش الكبير ومسحت جبهتها الندیانة وحاولت ان تتبين في الظلمة عقارب الساعة الصغيرة الموضوعة على التواليت قربها .

كان الوقت قد جاوز منتصف الليل بساعتين والدنيا سكوت الا من خشخشة أوراق الشجر كلما هزتها ريح او نباتات الحديقة إذا ما تسللت قطة الجيران . .

واحست نعمت بانكماش وتمنت لو تسمع صوتاً انسانياً يعيد لها الفتها لهذا الجو ، وودت لو تقوم فتندس في فراش احد ولديها ثم تشد جسمه الطرىء اليها وتغرق وجهه بدموعها ولكنها خافت ان تفسد عليه طمأنينة الليل لو هي قامت .

وأدارت عينيها في الغرفة . . كان هناك شبح الخزانة الضخمة يسد عليها احساسها بالمدى ، وكانت هناك زجاجات مصفوفة على

التواليت تلوح لها كأقزام متربصة .

وتقلبت في فراشها تتحسس الكتاب الذي تذكر انها ظلت تقرأ فيه ساعتين دون ان تفهم شيئاً قبل ان تنطبق عيناها . وفكرت في ان تسحب يدها من تحت اللحاف لتشعل النور وتحاول القراءة من جديد فتتلهى عن الاحساس ببطء الوقت وتحس بالفة مع بشر يتحركون في الكتاب .

ولكنها لم تستطع .

كان يلفها احساس بالضيق . . سيأتي . . لعله في الطريق يتعرف وسيارته على الدرب بعيون مثقلة . . أجل لا بد ان يأتي فيجلس إلى جانبها ثم يمسك يدها ويفركها بعصبية كأنما هو يستغفرها لتنسى انها ظلت تلبس ساعة وتنتظر ساعتين دون ان يأتي . .

لم يكن صعباً عليها ان تعرف أين هو . . . ثلاثة او أربعة أماكن يمارس فيها وجاهته ، لا يصعب عليها ان تكون في رأسها صورة غير مهزوزة لها . . فطالما تحدث اليها عنها . . . هو في واحد منها على مائدة تتوسطها زجاجة ، وتحيط بها أربعة او خمسة كؤوس بعدد من اصطفاهم ليكونوا رفاق ليله ، وأطباق تروح وتجيء ، وعيون ثمان تختصر المسافة بينها وبين راقصة شقراء من بلاد الشمال الاوروبي . . .

ثم يعود ليحدثها عن صفقة جديدة ، طلبية من الزبد والخميرة

الهولندية او السردين الدانيماركي تغـرق الاسـواق . أو شروة حديد تشحن إلى أوروبا أو توكيل جديد لشركة ثلاجات .

كثيرة هي مشاغله . . ومساهروه هم دائماً ناس ذوو علاقة .

هذي هي رواية كل ليلة منذ ست سنوات .

وكان لها النهار فهناك الطفلان تعدهما للذهاب للروضة وتنتظر وإياهما على باب الحديقة مرور الاوتـوبيس يأتـي مشحونـاً بوجـوه يرقص فيها الفرح . . ثم يعودان عصراً تسـبقهما ضحـكات فضية تحس معها ان أمومتها قد أثرت بها وبتطاولهما اليها يقبـلان شفتيهـا وخديها بشفاههما الحمراء .

صورٌ طفلةٌ تراها في كل من الوجهين الطفلين ، تنسخ بروعة شعرها الليلي وعينيها الشرقيتين فلا تشبع من التملي من ذاك الشبـه الذي فوت على ابيهما ان يعيش في أي من طفليه ، كأن الولدين لها وحدها .

أجل هما لها .

يعود زوجها في الليل وهما نائمان ، ويخرجان في الصباح وهو نائم ، والعطل صدف متباعدة في حياته ، أما الأمسيات فلم تكن لها او لهما ، فهي للخميرة الهولنـدية والسردين الـدانيماركي ، ولهـؤلاء الذين يخلقون النقود ، ويتعبدون لها في صفقات تشرب نخبها راقصة شقراء من بنات الشمال .

وتقبلت نعمت وعلقت عيناها بأطراف الثوب المتكوم على الكرسي الطويل مشلول العنفوان إذ سحبته عنها والقت به بعصبية حين أمضها الانتظار طيلة ساعتين . .

ما أهون عليه ان يكذب . . لو انه لم يعدها ولم يزرع مائة قبلة على وجهها وهو يمنيها بسهرة في النادي مع أخيها وزوجه .

وليتها لا تصدق فيظل لها تعوُدّها على رتابة الجلوس ليلةً بعد ليلة قرب الراديو مع كتاب أو بدونه ليعود لها بحجة لا تختلف قط . . مشغول ، مشغول ، كثير المسؤوليات ، نهاري للمراجعين وتأمين الطلبات ولياليّ لهؤلاء الذين تقتضي مصلحة أشغالي أن أساهرهم . .

قد يكون صادقاً ، ولكنها تحس ان وراء صدقه سبباً لا يغيب عنها ان تحسه ، كثيرون من أصدقائه يصطحبون زوجاتهم ، ولكنه كان يعتذر لهم ـ إذ يخرج وحيداً ـ بأنها لا تحب الخروج . . اجل كانت غيرته تقفز من عينيه كلما تكسرت نظرة اعجاب عند أهدابها السود ، وكانت غيرته هي الدفاع الوحيد الذي يمكن له ان يدّعيه بكثير من الصدق . . .

هي تعرف انه يغار ، وانها جميلة .

وكانت في أول عهدها بالزواج تستعذب هذه الغيرة تردها إلى حبه ، وكانت مقبولة مع احساسها ذاك . . أما اليوم فهي وان كانت

لا تشك في حبّه وفي سيطرتها عليه كأنثى تحس بالساعات الطويلة الممطوطة غولاً يأكل شبابها ويرش عمرها صقيعاً . .

وكانت تتمرد أحياناً ، وتنجح أحيانا حين تحسن اختيار لحظات المساومة ان تنتزع منه وعوداً ولكن ردّ الفعل لم يكن في صالحها دائما .

كانا يعودان ليقول لها بعصبية بأنها ضحكت أكثر من اللازم وان ثوبها مفتوح عند العنق أكثر من اللازم ، وان السهرة سخيفة ولا يكف عن هذا النقيق حتى يراها تبكي . . ثم يقوم يراضيها .

وظلّت نعمت تتقلّب في فراشها الكبير تحسب الوقت كلما دقّت الساعة في منتصف دورتها أو عند منتاها حتى تحركت عصبيتها حين سمعت صوت سيارته تقف وبابها يقفل في غير لطف ثم خطواته تقطع الحديقة في دعس لا يبالي ان يجعله خفيفاً مع هذا السكوت الذي يلفلف الليل .

وأدار مفتاحه ودخل .

وكانت تنتقل مع حركاته وهي تفكر بسرعة .

هل تتظاهر بالنوم وتتجاهل حضوره تماماً ، أم ترفع جسمها قليلاً وتأخذ وضع واحدة ظلت مع الكتاب حتى تلك الساعة لتخلق فيه إحساساً بالذنب . .

كان من عادته أن يوقظها حين يحضر وقد يرفع رأسها عن المخدة لتشاركه في أكل بعض ما يحمله من الثلاجة ثم يثرثران قليلاً

ويندسان في الفراش .

أما الليلة فستظل عنيدة لا تفتح عينيها ولا تستجيب لو حاول ان يوقظها .

وتمدّدت وغطت رأسها باللحاف وتماسكت حين دخل وأضاء المصباح ثم وقف فوق رأسها يهمس بأسمها ثم جلس إلى طرف السرير وشدّ الغطاء عنها وانحنى يقبّل كتفها الابيض .

ولعله أحسّ بأنها تفتعل النوم افتعالاً فأمسك من كتفيها كليهما وراح يضْغط ، وأوجعتها أصابعه ففتحت عينيها نصف فتحة سمحت لدمعتين ان تطفرا منهما .

ولم تفعل فيه الدموع أكثر من أنه كفّ عن الضغط ، ثم ضحك في وجهها ضحكة عصبية .

إذن فأنتِ زعلانة .

والتفت إلى الكرسي الذي تكوم عليه فستانها ، مد يده فسحب الثوب وأدناه منه ، ثم رفعه إلى أنفه وراح يشتم العطر الذي اختلط فيه برائحة البودرة ، ثم خلاه عند قدميها وانحنى ثانية عليها ليقول في أذنها كلاماً لم يكن عندها استعداد لتصديقه .

ومدّتْ أصابعها فجذبتْ الغطاء وتركته يلوك كلامه فانقض يزيحه ويدفن اصابعه في شعرها دون أن تتحرك .

وظل طويلاً يحاول استرضاءها . قبل ان يقوم وهي تلحظه

بطرف عينها ، فيعبث في جيب سترتـه ثم يعـود بشيء ويقف فوق رأسها .

نعمت . . ما هو ثمن المعطف الـذي قلـت انـه أعجبـك . كم . . . ألا تجيبين . . مائتـان . . ثلاثـة . . أربعـة . . تريدين المزيد . . خذي ، خذي . .

نعمت ، نعمت . .

وشدت نعمت جفنيها أكثر فأكثر . . وغالبت انفعالها حين طوقها بذراعين قويتين كسر بهما أضلاعها ، كان الأشمئزاز يزحف على روحها فيمسح المرارة والضيق والانفعال والحياة وكل شيء .

ولم تعد مع هذه الاوراق التي تغطي سريرها فتخنق انسانيتها أكثر من جثة ، كأية جثة يدفع لها ثمن . .



# عندما تمرض الزوجات

## المشهد الاول

### غرفة انتظار في احدى العيادات

السيدة - الطبيب موجود ؟

الممرضة - نعم يا سيدتي ولكنه مشغول . .

السيدة - أريد أن أراه . .

الممرضة - أهلاً وسهلاً . . ولكن يجب ان تنتظري قليلاً . .

السيدة - أنتظر ؟ . . لماذا انتظر ؟

الممرضة - لأن الطبيب يقابل المراجعين بالدور . .

السيدة - وهل يعامل كل الناس بهذه الطريقة ؟ . .

الممرضة - أية طريقة يا سيدتي ؟ . .

السيدة - هل تريدينني ان أنتظر مثل بقية الناس . . لا اسمحي لي . . هناك مواعيد وهناك « البرستيج » . .

المرضة - البرستيج ؟

السيدة - نعم « البرستيج » . . ألم تسمعي هذه الكلمة قبلاً ؟

المرضة - لا ، لا أظن . .

السيدة - لو كنتِ تفهمينها لأدركت انه لا يمكن لمثلي الانتظار ! . .

المرضة - لماذا يا سيدتي ؟ . .

السيدة - وتسألين لماذا ؟ . . ألا تفهمين الناس من مجرد النظرة ؟ هل تنتظرين مني أن القي محاضرة عن نفسي . . اوه لقد ضاقت أنفاسي . . أنني مريضة . . أجل مريضة . . لا بد ان أكون مريضة . .

المرضة - هل بامكاني ان أفعل لكِ شيئاً . .

السيدة - نعم ان تختفي من أمامي . . لقد بدأت أتضايق منكِ . .

المرضة - مني ؟ آسفة ألا أروق لكِ . . ولكن لا بدّ من انتظاركِ نصف ساعة على الأقل . .

السيدة - نصف ساعة . . لا لا . . مستحيل ، ادخلي على الطبيب وقولي له انني لست ممن ينتظرون على الابواب كهؤلاء . .

المرضة - يلوح لي ان مرض سيدتي لا يساعدها على شيء سوى الكلام . . حسناً بماذا تحسّين . . يجب أن نقول شيئاً للطبيب فقد يسمح بدخولك . .

السيدة - بماذا أحس . . آه عجيب وهل أعرف ماذا أحس ، لو كنت أعرف لما حضرت ، لقد ألغيت زيارتي للمدلك والحلاق . . و . .

المرضة - ( مقاطعة ) إذا كيف عرفت السيدة انها مريضة ؟

السيدة - لا تثرثري . . فأنا مريضة . . لا بدّ من ان أكون مريضة بشيء أو أشياء . . على فكرة ما هي الأمراض التي يمكن أن يمرض بها الانسان . .

المرضة - يمرض بها الانسان ؟ لا أفهم ماذا تقصدين . .

السيدة - وهل يبدو عليكِ انكِ تفهمين شيئاً ؟ . . قلتُ لكِ مم يشكو زبائن الدكتور عادةً . .

المرضة - ( تضحك ضحكة خفيفة ) أشكال وألوان ، سكّر ، ضعف قلب ، تصلب في الشرايين ، انهيار عصبي . .

السيدة - ما هذه الأمراض السخيفة . . أريد مرضاً جديداً . . مرضاً يستحق ان أدفع فيه الكثير . . مرضاً غير مبتذل . . ان كل الناس ، حتى الشحاذين ، يمرضون بضعف القلب وتصلب الشرايين والزكام . . أريد مرضاً طريفاً له اسم لاتيني .

المرضة - ( تضحك ) .

السيدة - تضحكين . . معذورة أنتِ لا تعرفين من أنا . . لو كنتِ تعرفين لما تركتني انتظر مع . . ( تلتفت

حواليها ) مع واحد يلبس قميصاً مقطع الأزرار . . وواحدة لا يمكن ان تكون أكثر من فلاحة . . أو خادمة . ومع ذلك فأنتِ تصرّين على ادخالهم قبلي .

المرضة ـ هذا لأنهم حجزوا مواعيدهم قبلكِ . .

السيدة ـ ولكنني أستطيع ان ، أن . . على فكرة لقد قيل لي ان الدكتور يتقاضى اجوراً خيالية . .

المرضة ـ خيالية ؟ لا ليس دائماً . . في الواقع انه يعالج بالمجان أحياناً . .

السيد ـ ( تقفز مذعورة ) ماذا ؟ بالمجان ؟ لا لا هذا فظيع . . ماذا تظنين بي . . بالمجان ؟ انني ادخل المستشفى حين أريد أن أتعاطى مسهلاً . . اسمعي . . اسمعي أيتها المرضة لا أريد ان امرض . . سأعود . . سأعود . ( يفتح الباب ويطل الطبيب ) .

الطبيب ـ لمن الدور الآن ؟

المرضة ـ لهذا الأخ . . ولكن السيدة تلح في ضرورة مقابلتك لأنها مريضة بشكل لا يطاق .

الطبيب ـ فلتتفضل ( اغلاق باب ) تبدو العصبية على سيدتي . .

السيدة ـ أجل فأنا مستاءة . . مستاءة جداً . .

الطبيب ـ آسف لعلي تأخرت . .

السيدة ـ التأخير وأشياء أخرى . .

الطبيب - تفضلي أجلسي هنا . . ( متمماً ) انني افضل ان اتبع النظام فهذا افضل لي وللمراجعين .

السيدة - النظام ؟ لقد قتلتموني بهذه الكلمة . . أي نظام هذا الذي يقدّم الخادمات علي . . لعلك لا تعرفني يا دكتور . .

الطبيب - بل أعرفكِ جيداً . . إنني حريص على قراءة الأخبار الاجتماعية من باب الترويح عن النفس . . لقد رأيتُ صورتكِ أكثر من مرة . .

السيدة - ( بانفراج ) اوه لطيف اذن فقد عرفتني .

الطبيب - وكيف لا أعرفكِ . . ألستِ عضواً في نادي الزرافة ؟

السيدة - تقول عضواً ؟ إنني الرئيسة . . رئيسة نادي الزرافة . . وعضو في نادي الاسود والابيض ، وعضو في فريق التزلج المائي .

الطبيب - إذن سيدتي رياضية .

السيدة - ليس تماماً . .

الطبيب - ماذا تقصدين بليس تماماً . .

السيدة - انني ( اسبور ) ولكنني لا أتزلج . . أنا أحضر الحفلات فقط .

الطبيب - لطيف هذا من حسن حظي ، فالمتزلجون ليسوا من زبائن عيادات الاطباء . .

السيدة - إنني أكره هذه الرياضة . . فهي متعبة ولكنها رياضة

ارستقراطية كما تعلم . . ان ( البرستيج ) يفرض علينا أحياناً أشياء لا نحبها . . اوه لا تبدو الحياة مسلية دائماً . .

الطبيب ـ هل تشكو سيدتي من شيء ؟

السيدة ـ هذا هو السؤال . لقد جئت هنا لألقي عليك السؤال . .

الطبيب ـ حسناً . الفحص يكشف كل شيء . . ولكنني أسأل عن الاعراض . .

السيدة ـ آه الاعراض . . ماذا تعني بالاعراض ؟ .

الطبيب ـ اعني هل تحسين بألم . . هل تتضايقين من شيء . .

السيدة ـ نعم إنني أتضايق . . لا تتصور كم تضايقت من الممرضة . .

الطبيب ـ ولكنها ممرضة ظريفة . .

السيدة ـ ظريفة ؟ إنها وقحة . . وقحة جداً . .

الطبيب ـ أعذريها يا سيدتي فهي لا تقرأ أخبار المجتمع . . ألا نعود للسؤال عن الامراض .

السيدة ـ لا أدري . . اختر لي انت المرض الذي تشاء . .

الطبيب ـ ( يضحك ) وهل هذه عيادة لبيع الأمراض .

السيدة ـ وماذا يهمك ما دمت تقبض . . يجب أن أعود إلى البيت ومعي أدوية وأريدك ان تزورني مرة أو مرتين . .

الطبيب ـ هكذا بلا سبب . . أهي تمثيلية ؟

السيدة ـ أبداً . . أنا مضطرة إلى عدم السهر . . ويجب ان يكون لدي عذر مقبول يقنع أصدقائي بأن سبب امتناعي عن السهر . . هو . .

الطبيب ـ هو المرض !

السيدة ـ أجل . .

الطبيب ـ هل أفهم ان سيدتي تكره السهر . .

السيدة ـ أكرهه كلا . . ان « البرستيج » يقضي علي بأن أظهر في كل ليلة . . فلا أنام كالدجاج في الساعة العاشرة . . ولكن . .

الطبيب ـ ولكن ماذا . .

السيدة ـ مسألة خاصة . . تفرض علي ألا أسهر . . وأن . .

الطبيب ـ تتمارضي . .

السيدة ـ أتمارض ؟؟ كلا انني مريضة فعلاً . وان ما ذقته من تلك . . اوه . . فلنعد لموضوعنا

الطبيب ـ سيدتي . . اني طبيب ولا بأس من ان تصارحيني فقد يساعدني هذا على تشخيص مرضكِ . .

السيدة ـ ألم تفهم بعد ؟

الطبيب ـ لا أعتقد انني فهمت . .

السيدة ـ يجب ان أكون مريضة بشكل يمنعني من السهر . .

الطبيب ـ وهل من الضروري ان تسهري . .

السيدة ـ لا ليست هذه النقطة .. المسألة انني أريد ان أمنع زوجي أيضاً ..

الطبيب ـ بأن تجعليه يمرض هو الآخر ..

السيدة ـ كلا بل اجعله يشعر ان من النذالة أن يسهر ويبدد نقوده على الافاقات حين تكون زوجته مريضة في البيت ..

الطبيب ـ الآن فهمت .. هو اذن يبدد نقوده ..

السيدة ـ ارجوك دكتور ، ان النقود لا تهمني .. ولكنها مسألة كرامة ..

الطبيب ـ طبعاً ما دامت هناك واحدة حقيرة تلاحقه .

السيدة ـ حقيرة وافاقة .. و .. دكتور ليس من حقك ان تعرف أسراري العائلية .. ليس لدي وقت أضيّعه لقد ألغيت زيارتي للمدلك والحلاق فقل أي مرض يحسن بي ان أمرض .. ولكن مهلاً .. هل هذه عيادة مجانية .

الطبيب ـ ليس تماماً .. هي مجانية لمن يستحقون المساعدة ..

السيدة ـ لقد قيل لي بأنك طبيب نابه .. وانك عدت حديثاً من أوروبا .. أنا لم أتوقع حكاية المجانية هذه ..

الطبيب ـ لا تخافي يا سيدتي ، سأقاضيكِ مبلغاً ترضين عنه ..

السيدة ـ لا ليس هذا هو المهم .. سيسألني أصدقائي عن اسم الطبيب الذي عالجني وتعلم بأن « البرستيج » يضطرنا ألا نتسامح .. انني سيدة معروفة .. معروفة ..

معروفة تماماً رئيسة نادي الزرافة و . . .

الطبيب - وعضو فريق التزلج المائي ونادي الاسود والابيض . . و . . .

السيدة - حسناً لقد عرفتني اذن . . فلا ضرورة لأقول لك من أنا . .

الطبيب - أبداً . . وأعرف ان زوجك يسهر . . وان هناك واحدة تحاول اختطافه . . وانك . .

السيدة - دكتور . . أنت تتجاوز حدودك . . أنا لم أقل هذا الكلام . .

الطبيب - كنت أحاول ان أشخص مرضكِ . .

السيدة - هل تهزأ بي . . أنت لا تحسن معاملة سيدة راقية . . دعني لا أريد ان أمرض . . افتح الباب . . كان يجب ألا اندفع فأسعى وراء طبيب مغمور يعالج الخادمات . .

( تخرج فتشيعها ضحكة الطبيب وهي تدمدم : قلة أدب . . قلة أدب ) .

## المشهد الثاني

( السيدة نفسها في منزلها . . تدخل عليها صديقة )

السيدة ـ آه هذه أنت . . توقعت أن تحضري . .

الصديقة ـ طبعاً لقد افتقدناكِ كثيراً . .

السيدة ـ إنني مريضة كما ترين . .

الصديقة ـ مريضة ؟ لا يبدو على وجهك شيء من هذا . .

السيدة ـ ألا تصدقيني . . أنظري . . خمس زجاجات دواء دفعة واحدة . يا الهي انني أختنق . . ( تنادي على الخادم ) لطيفة لطيفة ، افتح النافذة أريد هواء منعشاً . .

الصديقة ـ مسكينة لقد فاتتكِ حفلة الأمس . . لم نكن نعرف انكِ مريضة . .

السيدة ـ ماذا عسى أن يكون سبب قعودي غير المرض ؟ . . انني لا أتأخر عن شيء . .

الصديقة ـ ( تضحك بتخابث ) تريدين الحق . . لقد خطر ببالنا سبب آخر . .

السيدة ـ ( بعصبية ) سبب آخر ؟ ماذا تقصدين ؟

الصديقة ـ تعرفين جيداً ماذا أقصد . .

السيدة ـ تعنين تلك المرأة ؟ .

الصديقة ـ أجل . .

السيدة ـ أمثلي تهتم بواحدة مثلها . واحدة تافهة مستهترة . .

الصديقة ـ ولكنها صيادة ماهرة !

السيدة ـ أنا لا أبالي بها . . أنا حتى لم أمنع زوجي من الذهاب إلى حفلة الامس . .

الصديقة ـ وهل يطيعكِ لو حاولتِ . .

السيدة ـ ها . . ها . . لا تنسي انني صاحبة الدور الأقوى في هذا البيت . .

الصديقة ـ ولكن زوجك يبدو كالطفل المدلل .

السيدة ـ هذا إذا أغدقت عليه نقودي . . انني أعرف كيف أعاقبه حين أريد . .

الصديقة ـ لقد بدأ اللغط يدور حولهما . .

السيدة ـ انه غير مسؤ ول . . ان هذه تطمع في نقوده . . انها هي التي تلاحقه وهو مخلص . . مخلص جداً . .

الصديقة ـ ولكن الناس يقولون غير هذا الكلام . .

السيدة ـ الناس ؟ من هم الناس قبضة من الثرثارين التافهين المفلسين . . ان بوسعي أن أحطم هذه المرأة في أربع وعشرين ساعة لو شئت . .

الصديقة ـ ولماذا لم تشائي ؟

السيدة ـ انني مريضة . . ليس لدي وقت لاعالج سخافتها . . مريضة هل تفهمين ؟

الصديقة ـ افهم افهم. ولكنني لا أحب ان اسمع الناس يقولون انكِ امتنعتِ عن الحفلات لأنكِ تموتين غيرة . . تعرفين أن ألسنة الناس طويلة أكثر من اللازم .

السيدة ـ أنا أموت غيرة ؟ وممن ؟ من واحدة سايطة ؟ من أرملة رخيصة أفاقة مفلسة ؟ انني أعجب كيف يفتح

المجتمع صدره لواحدة على هذه الشاكلة .. من تكون هذه حتى تستحق أن تكون عضواً في نادي الزرافة ، وعضواً في نادي الأسود والأبيض .

الصديقة - ( تكمل ) وعضواً في نادي الفروسية ، وفي جماعة أصدقاء البقر الهولندي ، وهي صديقة كل السفارات ، وكل دور الدبلوماسية ، إنها ناجحة ، ناجحة جداً .

السيدة - ( تنادي الخادم ) لطيفة افتحي النافذة الأخرى ، وناوليني علبة السجائر ، يجب أن أدخن ولو كان مرضي لا يسمح بذلك ( تشعل سيجارة ) .

الصديقة - أنتِ شديدة العصبية يا عزيزتي ..

السيدة - بل مريضة .. هناك فرق بين عصبية ومريضة .. انك تثيرينني اليوم ..

الصديقة - آسفة .. كنت أعتقد انني اسليكِ بهذا الكلام ..

السيدة - أجل أنتِ تسليني ، فهو لا يدعو لأكثر من التسلية ولكنها تسلية على حسابي .. اسمعي لا أريد ، ولا أحب ، ان اسمع احداً يتلفظ باسمي مقروناً باسم تلك الساقطة ..

الصديقة - الناس لا يقرنون اسمها باسمكِ ، بل باسم زوجكِ . !

السيدة - هكذا على المكشوف ؟

الصديقة ـ هكذا على المكشوف . . إنه يراقصها ويشاربها ، وقيل بأنهما شوهدا معاً في السوق ، وفي قاعة القمار بأحد فنادق الجبل ، وانه دفع في احدى حفلات الاسبوع الماضي خمسين ليرة ثمن وردة تزين بها صدرها . .

السيدة ـ يا للكلب !

الصديقة ـ وألسنة الناس يا عزيزتي لا ينقصها الطول .

السيدة ـ ولكن . .

الصديقة ـ ولكن ماذا . . انهم يبحثون عن قصة ، أية قصة يلوكونها ، وزوجكِ . . ـ اسمحي لي بهذا الكلام ـ يعوزه فن المداراة . .

السيدة ـ هل كانوا يغفرون له لو عرف كيف يستر علاقته بها ؟

الصديقة ـ إذن أنت تعترفين بهذه العلاقة . .

السيدة ـ أنا ؟ أبداً . . انني أعقب على كلامكِ فقط . . لا يمكن أن يكون زوجي سيء النية ، انه سبور . . مجرد اسبور . . يا الهي ما اسوأ أفكار الناس . .

الصديقة ـ لا تثورى يا عزيزتي . . إن أعصابكِ متعبة . .

السيدة ـ ومريضة أيضاً . .

الصديقة ـ ولكن لا يحسن بك ان تلزمي الفراش فهذا يزيدكِ ضيقاً . .

السيدة ـ اعلم ولكنها نصيحة الطبيب .

الصديقة ـ دعكِ من الأطباء . . انهم يبالغون . . يجب ان تحضري حفلة نادي الصيد الليلة . .

السيدة ـ لا لن أخرج . . سأظل في فراشي وزوجي إلى جانبي !

الصديقة ـ اؤكد لكِ بأنكِ لو خرجت فسيظل إلى جانبك لبضعة أيام على الأقل !!

السيدة ـ ماذا تقصدين ؟

الصديقة ـ تلك الأخرى لم تعد تشكل خطراً . . لقد عثرت على صيد آخر . .

السيدة ـ ( بفضول ) صيد آخر ؟

الصديقة ـ اجل ، . وصيد سمين في هذه المرة . . سمين جداً . . هذا المغترب الذي عاد من الارجنتين قبل شهر . .

السيدة ـ نعم . . نعم . .

الصديقة ـ انه يفرق المال بلا حساب ويتحدثون فلا ينتهون عن مزارعه واصطبلاته وقصوره هناك . .

السيدة ـ ايه . .

الصديقة ـ لقد عرفت اللعينة كيف تحكم شباكها حوله . .

السيدة ـ اذن . .

الصديقة ـ اجل . . لقد انتهى الأمر . . كان زوجك وحيداً طيلة الليلات، الثلاث الماضية يشرب على البار ويتحدث في

السياسة . .

السيدة ـ وتلك ؟

الصديقة ـ لم تظهر . . يقال بأنه دعاها إلى الارجنتين . .

السيدة ـ لو قبلت فستستريح هذه البلدة كثيراً . .

الصديقة ـ اجل ولقد تراهنت ( الشلة ) بأنك ستظهرين الليلة مع زوجكِ . .

السيدة ـ وهل كنت من المراهنين . .

الصديقة ـ سأكون صريحة وأقول نعم . .

السيدة ـ إذن فسأدعك تكسبين الرهان . . ( تنادي على الخادم ) « لطيفة لطيفة اعدّي لي الحمام » ( للصديقة ) يجب الا استسلم للمرض ، ان حماماً ساخناً يفيدني كثيراً . والحياة أقصر من أن نبددها في الفراش . . أليس كذلك يا عزيزتي ؟؟

# صبي الكواء

معك نصف ساعة لتكنس الأرض ، وتنظف المكوى من آثار الرماد ، وتملأه بالفحم من جديد ، ثم تطفيء النور وتنام . . »

ـ « نعم معلمي » .

ـ « والنور ، لا تنس النور فتنام وهو مضاء ، سأمر من هنا بعد قليل ، فاذا . .

ـ « نعم معلمي ، نعم . »

ـ « اياك ان تسحب ثياب الزبائن لتتغطى بها . . والا . . » ولا يدع رزق معلمه آرام الكواء يتمها اذ تنثال « نعم معلمي » عشر مرات متلاحقة من شفتين ترسمان ابتسامة لا تدل على شيء .

ويقفل آرام بابه ، ويثبته بقطعة من الحديد الثقيل ، ثم يشد على رأسه البيريه الكالحة وينطلق تاركاً رزق مع ابتسامته التي لا تعني شيئاً بالذات ، يدور في زوايا الدكان بمقشة مهترئة ، ويجمع الكناسة كومة يتركها حتى الصباح ثم يتنفس ويمد يده الى جيبه فيخرج ما بها

من أوراق نقدية وعملة من فئات صغيرة ، ربع ليرة من الاستاذ خليل ، خمسة قروش من صاحبة البنسيون مدام ايلين . . أجل خمسة قروش فقط ، فالنساء لسن كريمات معه . . وعشرة من التلميذ الذي يعيش في احدى غرفها . . أما الباقون فما أعطوه شيئاً .

أربعون قرشاً حصيلة نهار طويل . لا بأس اذ ستظل في جيبه ، فقد نسي ان يشتري الرغيف وأقراص الفلافل قبل ان يغلق آرام عليه الباب .

حسناً فليس عسيراً عليه ان يحتمل مبيته دون عشاء هذه الليلة ، فقد تناول في الغداء أرزاً اذ حمل بذلة لأحد الافندية فصادف على الدرج خادمة البيت وهي تهم بكب محتويات طبق من الارز الى صحيفة النفايات التي تنتظر على الباب مرور عامل التنظيفات .

ودهش رزق وهو يراها تفرط بطبق كبير ، فتطلع اليها مستغرباً فسألته وقد أحست بلهفته عما اذا كان يحب أن يأكله ، وكان جائعاً فلم يستح ان يقول نعم ، وأكل واستطاب الارز لا سيما حين أحضرت له الخادم بقايا مرق تسبح فيه حبات من الفاصوليا البيضاء . . . فحاول وهو يأكل ان يتذكر متى كانت المرة الاخيرة التي أكل فيها الارز . . فتبين أنها كانت في الجبل قبل ان يهرب من أخيه وزوجته الشرسة . .

وأمسك رزق بالاوراق النقدية وادسها في كيس من القماش

يشده عادة الى وسطه ، ثم مضى الى صندوق من الكرتون كان علبة لأحد اجهزة الراديو ، فاتخذه رزق مخزناً لحاجياته القليلة ، وأخذ بدلة دفع فيها ليرة كاملة في سوق الدلالين ليستعملها فراشاً يبسطه قريباً من الباب فيستأنس بخطوات المارة التي تتسرب الى أذنه من الشق الصغير ، او براديو لبائع الفلافل القريب ، فقد تغني له فيروز أغنيته التي يحبها « هيك مشق الزعرورة » .

كانت بذلات الزبائن التي مرت عليها مكواة آرام تصطف على حبل مشدود الى مسمارين قائمين في جدارين متقابلين تتدلى منه بذلات الزبائن التي استنزفت عرق آرام قبل ان تستوي أنيقة نظيفة .

ان آرام وظهره المنحني على المكواة يثير الشفقة حقاً . لقد تأمله رزق طويلاً عصر اليوم ، وكان هذا لا يفتأ يمر بمنديله الخاكي على وجهه وصلعته ، ثم يرفع ابريق الماء الفخاري الى فمه ويشرب ، فيخيل لرزق ان الماء الذي ينزل جوفه ما يلبث ان يتجمع قطرات تتلألأ على صلعته العتيقة .

وتردد رزق قليلاً قبل ان يعرض على آرام ان يدعه يتمرن على الكي ليتمكن من ان يكون ذا نفع له ، فرفع آرام اليه وجهه المعروق وقال بلهجته التي ما تزال محتفظة بأرمنيتها . . لماذا . . لاجعل منك معلماً ينافسني في مصبغة خاصة ؟

وخاف رزق قليلاً عندما ترك آرام مكواه الحديدي الكبير ثم

تقدم وجذبه من يده ، ووقف به عند باب المصبغة وقال : « أنظر هذا عبدالله كان أجيراً عندي ، وذاك محمود . . وثالث فتح محلاً له في شارع الحمراء لقد تعبت عليهم وعلمتهم ، فلما برعوا أفسدوا علي زبائني. . . لا . . آرام لن يرتكب الغلطة نفسها . . ولن أجعل منك معلماً جديداً ، ستظل تحمل الثياب للزبائن ثم تأخذ ليراتك العشر في كل شهر . . فاهم ؟ أنا لست حماراً .

وعاد يمسك بالمكوى ويمر به بعصبية على القميص وهو يردد : « آرام ليس حماراً ، آرام ليس حماراً . . . »

ولم يجد رزق مبرراً لكل هذه العصبية ، فهو لم يفكر في شيء حين عرض عليه بدافع الاشفاق ان يعلمه الكي .

ولكنه لما استلقى في الليل على فراشه وتعب من الانصات الى خطوات المارة وتصنيفها الى دعسات رجالية او نسائية ، وأغلق سعيد محل الفلافل فانقطع عنه صوت الراديو ، لم يخف رزق ان يفكر في حقه بأن يصبح معلماً .

وان يكون معلماً ليس أمراً بسيطاً أبداً ، فهذه الحرارة التي تنبعث من المكوى تذيب لحمه ، ولكنها تظل عنده أحسن من المشاوير التي لا يؤمن بها آرام ، فهي في رأيه مجرد هزل ، فكلما أعطاه الليرات العشر في نهاية الشهر او بعد أيام من ابتداء الشهر الجديد قال له : « خذ . أنت لا تستحقها . فماذا تفعل لتأخذ هذا

المبلغ كله ؟ كنت أنا أجيراً لا أكلف معلمي أكثر من خمس ليرات ، وكان عصبياً يضربني اذا حنق ، ولم أكن أحصل بقشيشاً مثلك أنت لا تسوى شيئاً ، ومع ذلك تأخذ مني عشر ليرات في الشهر ، مائة وعشرين في السنة ، ستمائة في خمس سنوات ثم تفتح محلاً وتصبح ابن كار ، أجل لن تكون خيراً من الآخرين .

ويستدير آرام فيبصق وهو يسلمه عشر ليرات مهترئة الأطراف متسختها .

وانقضى وقت طويل على رزق وهو ما يزال يفكر ، فسمع صوت باب المطعم يغلق ، كما جر بائع الذرة المشوية عربته وأصبح السكوت مخيّماً الا حين تزحف عجلات الترام الحديدية على الخط فيهتز للرجة باب المصبغة .

وأحس رزق بجفاف حلقه فقام الى ابريق الفخار يمص فوهته ، وتمنى لو يدير مفتاح النور فيستأنس بالضوء ولكنه خاف من مفاجآت آرام .

فعاد يجر نفسه الى الفراش يتصيد صوتاً من الشارع يؤ نس ليله الأخرس .

ولكنه ما لبث ان انساق دون شعور وراء أفكاره ، فسمح لنفسه ان يتخيل يده تحمل مكواة تعنو لها القمصان الاميركية ، والجاكيتات البيضاء ، والسراويل الخاكية .

ولم يجرؤ على الفساتين فلكيها عملية معقدة ترهق حتى آرام نفسه ، ولكنه سينتصر عليها حين يصبح معلماً .

أجل فقد قرر ان يصبح معلماً .

وقام من فراشه وتردد قبل ان يشعل النور خشية ان يظهر من شق الباب او يتسرب من الطاقة الداخلية الصغيرة ، فهي تطل على كاراج لا يفتح ليلاً ولكنه انتصر على تردده حين امتدت يده ورفعت الزر بثبات فانتشر الضوء ، وتبدى له المكان كما كان في النهار ، كل شيء على حاله الا آرام لذي لم يكن واقفاً أمام خشبة الكي في يمينه المكواة ، وفي يساره منديله الخاكي المبلل .

كانت المكواة تنتظر وقد امتلأت بقطع الفحم ، وقبل ان يشل التردد ارادته تقدم رزق فكب عليها قليلاً من زجاجة النفط ثم أدنى منها عود ثقاب أطلق فيها أبالسة اللهب ، وسارع رزق يطفىء النور ليستمتع بمنظر الالسنة الحمراء التي كانت تلقي ظلال نور على الملابس المكومة . . تشكيلة عجيبة منها لأناس مختلفي الحجوم والاشكال ، والامزجة والمراكز . ولكن المصبغة آلفت بين ثيابهم . .

وبدأت الالسنة تخمد وعادت الظلمة الى المكان ، فكان لا بد من اشعال النور ثانية ليبدأ تجربته . . وحار بم يبدأ .

ثم لمح قميصاً ملوناً كان واحدا من قمصان ثلاثة حملها من غرفة الاستاذ خليل لتنظف ، ورأى ان يبدأ بالملون فهو لا يَصلىَ على

الاقل ، وهو أيضا يحب ان يصنع شيئاً للاستاذ ، فهو أطيب من يحمل لهم ثيابهم وبالأمس فقط كان واقفاً أمام محل يشتري هذا الشيء الذي يشبه الدندرمة والذي يسميه الاولاد « مري كريم » ولما مر به ناداه وأمر البائع ان يعطيه واحدة دفع ثمنها من جيبه ، فمد لسانه في لحسة رفيقة يتعرف بها على طعمها ، ولما بلغ بها الدكان لم تسلم من لسان آرام الذي طلب اليه ان يدعه يذوقها فأجهز على القبة البيضاء المتربعة على البسكوتة ، ومسحها .

وامسك بالقميص وبسطه على خشبة الكي ، ورفع المكواة مبتسماً اذ تذكر كيف سيتوهم آرام في الغد بأنه هو الذي كوى القميص ولكن رزق لن يخدع الاستاذ خليل سيقول له بأنه كوى قميصه بيديه .

وكان رزق جذلاناً جذلان يمازحه قلق وهو يرفع المكواة ثم يضعها لحظة على الكم ثم لا يلبث ان يرفعها .

وكان القماش يملس تحت مكواته قليلاً قليلاً فتسّوى المربعات السوداء على القميص الاحمر ، فتجرأ ان يريح مكواته ويشدها كثيراً على الكم ، ثم ينتظره فترة قبل ان يرفعها ، فتجحظ عيناه حين تلتصق قطعة الكم بالمكواة . .

لقد احترق القميص ، قميص الاستاذ خليل . . قميص أحب الزبائن . . قميص الرجل الذي ما رآه مرة الا ونفحه بشيء . .

وتقلصت أصابع رزق على المكواة ، ماذا سيفعل به آرام في الغد ؟ سيقتله ، سيطبق الدنيا عليه ، آه لو كان بوسعه ان يهرب ، ان يدفع هذا الباب الموصد ، ويركض ، يركض الى حيث لا يناله آرام ولا أصابعه المعروقة الصفراء . .

ليته ظل على أرضه ، لا يحلم بالقمصان المكوية ولا بلقب معلم . .

ليته أحرق أي شيء الا قميص الأستاذ . ماذا سيقول آرام ؟ أية ثورة سيثيرها في الصباح ! ثم لا بأس عليه من ثورة آرام لو ان القميص لم يحترق . . .

ترى ، ماذا سيقول الاستاذ ؟

هل سيكشر في وجهه لأول مرة ؟ لو يعرف من أين اشترى الاستاذ القميص لمضى وابتاع واحداً جديداً ولو دفع فيه كل ليراته .

آه لو يفتح هذا الباب ، لو يفتح هذا الباب ، وسحّت دموع رزق وتكوّم على الأرض ورأسه الى الباب يرجو ألا يلوح الصباح ، وتعب من البكاء والتفكير فأسلم رأسه للخرق التي جعل منها مخدة ليحلم حلماً رأى فيه القميص . . القميص المحروق الكم وآرام بوجهه العظمي والبيريه الكالحة على رأسه يشتم آباءه وأجداده ، ولكنه لم يكن خائفاً ففي حلمه رأى الاستاذ خليل يبسم له ويطمئن جزعه ويقول : « لا بأس على القميص يا رزق ما دمت قد حاولت ان تصير معلماً » .

# طالعة نازلة

كادت تكون صديقتي ، لي عليها علبة علكة كل يوم ، ولها مني خمسة قروش ، لا تنقطع أو أنقطع .

أما كيف ألفتها حتى صارت طلتها عليّ شيئاً أفتقده لو تخلفت عن ذلك مرة واحدة فلذلك قصة بسيطة ، نشأت كما تنشأ الصداقات رأسمالها قد لا يتجاوز ابتسامة ، ولكنها تفرض عليك ان تكون صديقاً .

كانت صغيرة ، ممكن ان تكون شقراء لو عرفت خصلاتها نعمة الماء ، أما ثوبها فمهلهل طويل يأكل ذيله من كعبيها ، تجلس قريباً من دكاني الذي أبيع فيه الصحف والسجائر ، ودالتها علي كبيرة تسمح لها بالتحديق الى صور الصفحات الاولى وتسأل إذا ما آنست وجهاً صبوحاً .

هل هذه افرنجية ؟

لا أظن ان واحداً من مشتري صحفي كان يرفض علبتها

الممدودة ، التي صفت عليها علب صغيرة صفراء كلها أو خضراء واحدتها بخمسة قروش بلا مساومة .

وكانت تربض في مكانها لا تغرّب لأبعد من سينما الروكسي والدنيا حين تحين مواعيد العرض ، تضيع في زحام الجمهور المتكالب على شبابيك البيع ثم تعود وقد نفد قسم كبير من العلب الصغيرة ، لتستقر قريباً مني وتسأل بين حين وآخر كم بقي من وقت لغياب الشمس ثم تعد ( فرنكاتها ) وترجوني ان استبدلها بعملة من فئة أكبر ، تسمر عليها أصابعها فلا تتفرج الا لتلقي بها في قبضة أخيها الكبيرة .

مرة تفقدتها على رصيف دكاني فما جاءت ، وشغلت عنها بتصريف صحفي حتى لمحتها عيناي تنط قريباً من حانوت الالعاب الكبير على الرصيف المقابل ، فظننت انتقالها رغبة في تصريف أسرع ، فالناس في المواسم يتجمهرون على الرصيف الآخر الذي تقوم عنده دكاكين لها مع الاعياد مواعيد ، ولما رأتني أتطلع اليها وأتساءل باشارة من يدي عن عدم مجيئها رأيتها تنط صوبي قاطعة الشارع بخفة القطة الشقراء ، لا تكاد تتهيب سيل السيارات الزاحف نحو البرج ، لتقول لي بأن أعجوبة شدتها الى حانوت الالعاب ففي الواجهة لعبتان كبيرتان عيونهما مدورة زرقاء تجلس كل منهما على كرسي ألصق بطرف عارضة خشبية ، اذا علت واحدة انخفضت الأخرى وهكذا .

ثـم تسألنـي لماذا لا أروح بدوري وأتفـرج على الاعجوبـة الطالعة النازلة الا انها لا تنتظر جوابي بل تستدير وتقطع الشارع دون تحسب لبطش القطارين اللذين كادا يتقابلان .

وظلت نهارها مرابطة هناك ، عيناهـا مشدودتـان الى زجـاج النافذة ، ويدها تحمل العلبة بحكم العادة ، ولكنها في هذا النهـار علبة غير لجوجة ولا ممدودة !

لقد استواها المنظر فكسلت عن التجارة . ولم تفطن إلى انها لم تصرف غير علب قليلة إلا حين جاء أخوها في المسـاء ، ورأيتـه يسحبها من اذنها ، وهي تدمدم باستياء كلمات لم أسمعها ، ثم غابا عني وأنا مشفق عليها من حساب فظ جلف .

ولما جاءت تحييني في الصبـاح سألتهـا ما إذا كان قد ضربهـا فقالت :

ـ نعم . . قليلاً . . ولكن ما هم ؟ ان الناس لم يطلبوا العلكة ابداً البارحة ، فهل ابيعهم بالقوة ؟ »

كانت تكلمني وعيناها على حانوت اللعب الذي كان ما يزال مغلقاً ، فلمحت فيهما قلقاً لم يزايلهما إلا حين انفرجت دفتا الباب وتلون الشارع بالواجهة المرحة .

هنا كانت « يسرى » ـ أجل فاسمها يسرى ان فاتني ان أذكره ـ هنا كانت « يسرى » قد نطت إلى الرصيف الثانـي لتلصـق عينيهـا بالواجهـة ثم تغيب قليلاً وتعـود وبصحبتهـا ثلاث من البائعـات

الصغيرات وفي يد كل منهن علبة ، فتتلاصق الرؤ وس الاربع ، ولا تفترق إلا بزجرة من صاحب الحانوت اخافتهن جميعاً عدا يسرى التي ظلت تحتل مكانها ، وتتمنى لو تخترق برأسها الزجاج لتقبل كل لعبة من الاثنتين !

واستغرقت في عملي وازداد زحام الشارع فنسيتها ، ولم ألق بالاً اليها إلا عصراً حين اشعلت سيجارة واتكأت على الحاجز بمرفقي لاستريح ، فرحت أبحث عنها ، وكانت ما تزال هناك ، ثم شاهدت رجلاً يسحب صغيرة من يدها ويدخل بها المحل ، وبعدها بقليل رأيت يد البائع تمتد إلى الواجهة فتتناول اللعبتين والعارضة ، فقدرت أن يكون الرجل شارياً من هؤ لاء الذين يدفعون بلا سؤ ال فحياتهم ما كانت يوماً بحساب .

وصدق ظني ما هو الا قليل حتى خرج الرجل وصغيرته تنط وراءه وكان في اثرهما عامل المحل يحمل اللعبة ملفوفة . . .

اما يسرى فقد وقفت تشيعهم كالذاهلة حتى إذا اختفوا في غمرة الزحام رأيتها تجيء إلي وفي عينيها زوبعة بكاء لتقول :

لقد أخذوها . . اشترتها هذه الشيطانة ، لو تركتها لي يوماً واحداً . . فقد كنت عازمة ان أدعو بنت عمتي لتراها . .

ونظرت إلى يسرى احاول ان أجد شيئاً أقوله لها ، ولكنها لم تمهلني فقد حملت علبتها وراحت تجر قدميها وتنادي على بضاعتها بصوت متكسر ؟

# الفهرس

# سميره عزام

لم تُظلم كاتبة في الوطن العربي كما ظُلمت سميرة عزام .. هذه المرأة الخضراء الظل ، المبدعة المناضلة ، الشامخة المقاتلة .

هي رائدة القصة القصيرة ولم تأخذ حقها من النقد والنقاد ، ولم تنشر أعمالها كما ينبغي لكاتبة في مثل مقدرتها .

وهي العربية الفلسطينية الصميمة ـ الودودة قلباً ، الصلبة موقفاً ـ والتي لم يذكرها أحد في تاريخ نضالنا مع انها أوَّل من أسهم في تأسيس وتشكيل تنظيم فلسطيني في نفس الوقت الذي كان فيه أبو عمار يؤسس مع رفاقه حركة التحرير الفلسطينية .

* * *

كانت سميرة عزام متجهة نحو فلسطين عندما ماتت على الحدود ـ كانت فلسطين هي حلمها وأغنيتها وهي أملها ومعشوقتها ـ وكانت وهي تقود سيارتها بنفسها تستمع إلى ترتيل القرآن الكريم ـ كعادتها ـ فالإسلام حضارتها ـ كما كانت تقول ـ وهي النصرانية الغسانية . ولم تمت سميرة بداء أو مرض فقد ماتت نتيجة جرح الأرض النازف من خاصرتها ، وماتت لأنها عربية حقيقية تحمل في قلبها هموم الأمة كلها وكان تعبها الشخصي هو حلمها الكبير في أن ترى أمتها منتصرة ، وأن ترى الوحدة حقيقةً ، والانسان حرّاً ، والظلم مرفوعاً ، والأرض خضراء ، والليل قد أزاح سدوله القاتمة عن رؤوسنا وقلوبنا ..